

عبد الحكيم قاسم

ديوان الملحقات



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الأعمال الإبداعية

ديـوان الملحـقات

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : المزاد

التقنية : ألوان مائية على ورق

المقاس : ٢٥ × ٣٥ سم

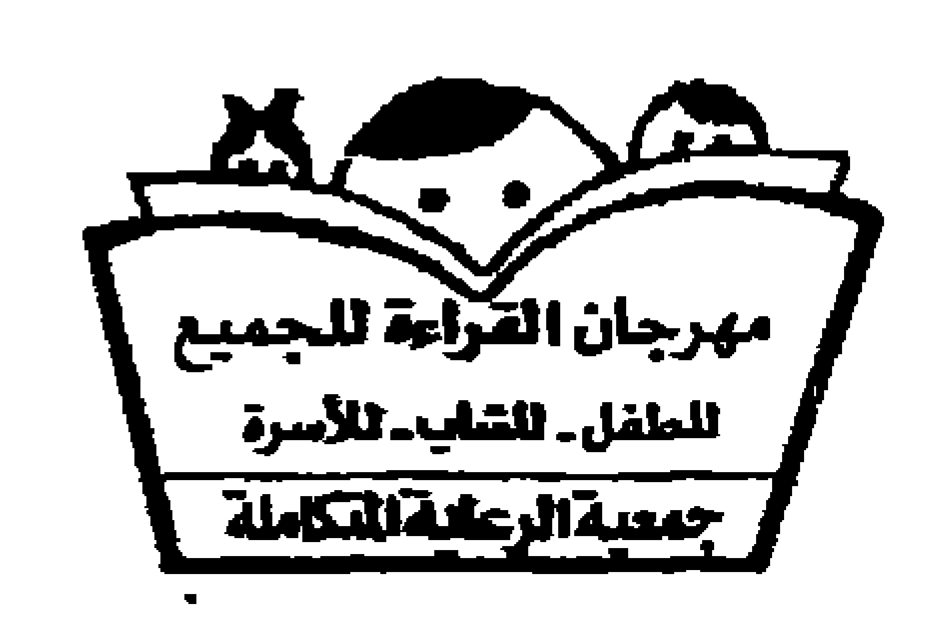
تـــاد

فنان تشكيلى مصرى، يعمل فى مؤسسة روزاليوسف، ويرسم لمجلة صـبـاح الخـيـر، وهو فنان دائم التطور والدائب، ينجز أعـماله المهمـة فى صمت وتؤدة، دون ضجيج وطنين، فنان حقيقى مثابر يتقدم على مرسل، مباغت دوما للقارىء والمشاهد، لم تأخذه الصحافة من الفن الخالص، فغالبا ما يقدم أو يشارك فى المعارض الفنيـة الخاصة والجماعيـة، المحليـة والدوليـة، وفى كل معـرض يقدم رؤى جديدة، ويغوص فى العـوالم. المصريـة، والأعماق الشعبية، والبيئة البكر التى لم تفض بكارتها على المستوى الفنى.

محمود الهندى

ديوان الملحقات

عبد الحكيم قاسم



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

ديـوان الملحـقـات

عبد الحكيم قاسـم

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سـمير سرحــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم:

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

جدل العنف والوهن ٠٠ !

● **صاحبة النزل :**

تسكن فى الطابق الأول ، والغرف اللاتى على الأرضى تؤجرها مفروشــة لطلبــة الجــامعة ، أما فى الصيف فيعمرها الآتون ينشدون الطراوة وريح البحر ٠ نحن الآن فى عز الشتاء ، وهموم الطلبة ، تنزل كل يوم فى الصباح تنظف وتروق ، وتنظر فيما حصل من تلفيات، وتؤنب الساكنين على النظام ، وهى فى ذلك مســلحة بسلاح الاسكندرانية من الشــخر والشــخط والنطر والأح ، وكل ما يبلى الغريم بالخرس والذهول فى عينيه وربما يفغر فمه خيبة وتعسا ٠

والولد الساكن فى غرفة تحتية يقول لها :« حاضر ! طيب ٠٠ حاضر ياستى ٠٠ ! » وتفــكر الولد فى أمر السيدة ، انها امرأة عجوز ، أهرمها السن ، فليس لهــا

من الطلبة الساكنين الا فلوس الايجار ، ثم تصعد لشقتها بعد التفتيش اليومي لزبائنتها من النساء المومسات ، كلهن جئن اليها يشربن قهوتها ، ثم ان المعلمة تشوف لهن الفنجان ، وتقول للواحدة منهن أربع كلمات حسان طيبات • اذن تطلع علب السجائر ، والعزائم ، وبالقطع الفضية ، وورقات النقود ، وكل واحدة من ضيفاتها تبقى عندها ردها من الزمن ، وتذهب بعد ذلك لشغلها ، وتبقى السيدة وحدها مشغولة بصداعها •

ثم تبكر لجولتها اليومية تفتش على غرفها • والولد ينتظرها • قال فى نفسه انها امرأة هرمة ، لكن بقى لها بهاء فى الوجه ، يتورد اذا ضحكت •• آه ياسلام • وهى قالت فى نفسها انه الولد الذى سكن عندها أخيرا له عليها عين • تحذر عينه • تدور وتلف ، والولد قاصدها ، أردافها وصدرها ، يلطسها لطسا ببسطة كفه ، يلمس ويمسك ، وكلما أرادت آن تفر قبض على يدها يستبقيها • بذلك وقعت فى الناصية ، انبهرت ، وبهرت أنفاسها ، واقتم اللون الوردى فى وجناتها • ثم صعدت لزبوناتها من النساء المومسات جلست معهن شاردة ، لا تستطيع أن تفتيهن فى أمرهن شيئا •

وفى ثانى يوم وجدته ينتظرها ، يزنقها ، تحاول أن تفلت بكومة لحمها لكنها لا يطاوعها جسمها ، أن

تشخر فيه ، تصغره وتلزمه الأدب ، انفرطت منهـــا عدتها الاسكندرانية • أن تصرخ فيه ، فخانها صوتها • وحاولت آن تفر ، وكانت سبقت ارتبكت في شباكه •

قالت له : « ماذا تريد مني يا ولد ؟ » •

قال لها : « أريدك أنت •• ! أريدك كلك •• ! آكلك •• ! » صعدت الى مسكنها وهي ترتجف ارتجافا •

حتى المومســات جئن يتضــاحكن • وقعت عينها فيهن ، وتحت الطلاء بأساء المهنة • قالت في نفسها ، انهن عندهن الرجال من كل نوع ، ثم يأتينني ينشدن حظا عند الوحيدة • قالت لهن : « بالاذن يا اخواتي ، أروح لزيارة أمي ؟! » فخرجن كلهن ، وهي نزلت الى الطابق الأسفل قالت للطالب وهي تدخل غرفته وتغلق الباب وراءها :.« ياولد •! » وفي صوتها كل الهزيمة، قبض على ذراعيها وضمها الى صدره ولف ذراعيه على ظهرها وقبلها في شفتيها فخرت منهارة على السرير ، وهو واقف يغالب تقززه من سوء طعم ريقها وارتخاء شفتيهـــا • وقـــالت لـــه دائخـــة : « لا •• لا •• ليس هنا •• سيكون ذلك عندى ، قبلها تقسم على المصحف ألا تفضحني •• ؟! » تأمل الكومة الهرمة على السرير• رد عليها كالمخدر : « نعم •• آجيك •• وأحلف • ! »

وصعدت السيدة صاحبة النزل الى مسكنها •

استحمت • صففت شعرها •و صبغت خدودها •

ولبست قميص نوم حريرى أحمر كان عندها من زمان ، نظرت فى المرآة • ارتجفت • قامت تنشد المصحف الشريف ، وجدته ، فردته على حجرها ، لا تعرف القراءة ، أغلقته ، نظرت فى المرآة ففزعت • هتفت : « الولد لم يأت •• ! » تقطع الشقة بخطوات متسرعة ملهوجة ثقيلة والمصحف تحت ذراعها اليمين • فتحت باب شقتها وانطلقت تعدو الدرجات النازلة للغرف • تصفق باب الولد بيدها اليسرى ولا من مجيب • تركت المصحف يسقط لتصفق الباب بيديها • تصفق • وتصفق ثم نطحت الباب برأسها ، وصرخت، وسقطت ، والدم ينبجس من جبينها •

● واحد من أهل الله :

ذات عصر انحبست الرياح البحرية ، وزمتت الدنيا، وتكدر ضوء النهار فيما بعد الظهر بمسحة من الغبـــار فتلونت الأشياء ، وتجهم أبى ، وأنا كنت جالسا جنب الأب على مصطبة دارنا وقدامنا ســاحة تلعب فيهـــا النسمات لعبة أسيفة ، تدوم وما ترتفع قدر شبر حتى تهمد ، أتأملها ، وأرمق أبى ، وأرى جهامته ، وحبـات مسبحته تتساقط من بين أصابعه فتصك الواحدة الحبة الأخرى صكة كهربائية ٠

وجاء الرجل ، نراه يدرج نحونا ، وأنا فرحت به جدا ، طرت ليمــه بأشــواقى ، فرشت تحت أقدامــه سجاجيد لهفتى وطيبى به ، وأبى يبتسم ، نظره متعلق بالرجل ورأسه تميل ميلا ، ترنم نغمات رضاه ، حتى

وقف الرجل قدامه فتصـــافحا وقبلا الكتفين ، وجلس متضائلا فائضا أدبا • وجئت بالشاى ، تناول كــوبه محبورا وربت على ظهـرى ، وأخرج من جيبه حلــوى فنفحنى بها ، جلست أتلذذ بالحلو وقد صـــار الــوقت حلوا ، انطلقت النسمات العصرية ، وراق ، هل يأتى هذا الرجل من الجهة البحرية ، مخازن الريح تبرد من حر النهار ؟ أم يأتى من رطم حبات المسبحة فينعم به وجه أبى ؟ جاء الناس فرحين بالرجل يسلمون ويجلسون حتى ازدحمت المصـــطبة ففرشت البــاحة حصرا وجلســوا ينصتون والرجل يحكى عن حبه لشيخه ، يكنس الروث من تحت بغلته وهو لابس زيه الرسمى • حتى كان ، وترك الخدمة فى القوات المسلحة وتكبل بالحـديد ، يسمعون صلصلة حديده ، يخفيه تحت ثيابه ، وفى كل مرة عند هذا الحد من الحكاية يتنزل من السماء ايمان على قلوب الناس ويصلون على النبى ، وتضاء الأنوار •

صلوا المغرب جماعة فى هـــذا المطرح ، وفرحــوا بانقضاء الفرض • ضحكوا ، وجاء الطعام ، خـــرجت الصوانى من كل دار صينية ، واجتمعوا على العشاء ، ضحكوا فرحانين ، حتى انهم حين وقفوا لصلاة العشوية المتأخرة كان فى أفواههم من بقايا ضحكهم • لكنهم لما جلسوا لقراءة الدلائل تجهموا والرجل معهم وجشت

الأصوات ، وصلت النغمات الغلاظ للأوج مما يبوح به القلب ·

ولما وقفوا للذكر ارتعبت ، لبدت فى جنب أبى فى مجلسه على المصطبة وكبشت فى لحم فخذه · والذاكرون يقفون فى صفين ، جدعان فتيان ، وعلى رأس الصفين مداحة سوداء بيضاء الأسنان ، وفى يدها دفهـا وهى امرأة شامخة ، وفيما بين الصفين يقف الرجل ناكس الرأس متحاضن اليدين ، ولما يبدأ الذكر ويصـل الى أوجه احترت وتعبت فيما أريد أن أعرف ، أهى المرأة تقود الرجل وترقصه ، أم هو الذى يمسك زمامها ، وهى على صهوتها تتلعب لفارسها ؟ تعبت وأبى ساكت يقطر حبات مسبحته حبة وراء الأخرى ·

الذكر بلغ أوجـه ، وطـارت التقية من على رأس لرجل ، وثار شعره خصلات طائرة مع حركته ، وجهه اقتم ، وفمه يفيض رغاء ، وذراعاه طائران ، وقدمـاه يدقان الأرض ، يخضخضان جسده فى قذفات متتابعة - خلع جلبابه ، وبان حديده ، وسلاسل تلفه كله ، تشخلل وتصلصل وتصطك مع رقصه الجنونى الرائع ·

المـرأة تميل بالدف مـع الآه ، وتعتـدل مع الآه الأخرى ، وتغمض عينيها ، وتضحك كالنهار ، وترجج كتفيها اثنين اثنين ، وترفع رأسها الى الخلف مـع الآه

الثالثة الحرى . والدق تباعا بيدها السوداء الهائلة على قلب الدف . هل أدرى أيصل تيارها الرجل ، ام يصلها الرجل بتياره ؟ وأبى صامت والشباب الذاكرون جنون مكتوم الدق ، صرخ الرجل صرخة ممطوطة طـويلة ، وهو طويل ، يرفع يديه لأعلى مفروشة الأصابع . المرأة ترجع بالدف لحنا موصول المقاطع والبحـات كظت ، والعيال الذاكرون يجاوبونها بالدق ، وخشيش الصدور . اذ اتخذ الرجل من حديده جنزيرا طويلا ، ثم يديره على رؤوس الناس دورانا حاكما باهـرا ، والذكـر دائب مسقوف بالحديد ، لحظات أبدية .

وبدأت أرتجف ، أزن كما يكون اعوالا ، ضـمنى أبى اليه ؛ وأسناني تصطك ، حتى سقط الرجل وهـو يهتف بألا اله الا الله .. وبهذا انتهى الذكر وأقبـل الناس على الرجـل يلثمون يديه ورجليـه ويلتمسـون البركة من حديده . وأبى هدأ من روعى وقال لى :

ـ انه واحد من أهل الله .. !

● انتصار :

أخيرا جاء الماء ورويت الأرض التى حصد عنها قمحها ، وتلك التى بقى بها زرعها المستحصد ، بما عجز أصحابها عن سداد الايجار . هكذا طفحت الشقوق، وامتلأت الحقول بالمياه ، وغمرت فخرجت منها أسراب هائلة من الفيران ، غيطانية بنية صفراء الظهور، تجرى ، ويخبط بعضها فى بعض ، يقفز بعضها فوق بعض ، فرار مذعور أعدى الجراد فطارت جماعاته فوق سيل الفيران المنحدر ، والفراشات ، والعناكب تتعلق بخيوطها ، تتسلق الوهم صعدا ، والعصافير تزقزق وتضرب بجناحها هاربة . ومالك الحزين ينشد مكانا رائعا يستمتع فيه بالماء ، تزحم الفيران المكان بالجنون، ومالك الحزين يعلو ليسمح له ليعبر ، ثم ينظر أين يحط .

سحب من فيران غيطانية ، سمينة بما قرضت من سنابل القمح طوال الموسم،ينطلقون لا يلوون على شيء ، من الحقول الى الأجران ، ازدحمت بها الأرض ، تزلزلها بركضها الصموت وتسد الأفق بسحب شفيفة ، فانتشر الفزع • من ناحية القرية خرج العيال ، سحابة كثيفة، عيال حفاة ، جلاليب على العرى ، سيقانهم ملتوية رفيعة ، وكروشهم منتفخة ، والوجوه ، والعيون تقرحت ، والشعر أشعث ، هجموا ، قابلوا هجمة الفيران • كلما دفقت المياه في الارض بها من جديد ، وجاء العيال على الصياح ، تخالط الجمعان ، صرخات الفرح وصرخات الفزع حتى كف الجرى وأوقف الفرار وهمد العفار ، وما بقى فى القرية طفل ، الا وقد حاز فأرين أو ثلاثة أو أربعة •

والولد حويط •• ! اصطنع فتلات ، لكل فأر من فيرانه الأربعة فتلة • ربط الفتلة على الساق ربطا محكما وخلى لها الفتل طويلا ، أرخاه ومشى يمسك الأربعة حبال في يده مسكا وثيقا ، وعند آخر الحبال تترقص وتتلعب ، يوقع لها بالارخاء والشد . تنوى أن تفر فيرغمها الرباط ، وتستمر اللعبة ، رقصة رهيبة ، والطفل سعيد بشغبه وانتصاره • تمادى ، فدق وتدا فى الأرض ، وأحكم فيه ربط الفتلات الأربع ، كل واحدة تنتهى بواحد من فيرانه • تركها تجرى والاحبال

ترغمها على الجرى فى دائرة مركزها الوتد ، والولد يجرى يطارد الفيران على محيط الدائرة ، يصفق ويذكر ويتراقص ، والجرى دائب والدائرة لا تعرف الاكتمال أبدا • حتى تعب الصغير ، جلس وحيـواناته واقفـة جامدة ينبض فى كروشها النفس •

قال الولد لنفسه وفى يده الأحبـال الأربعة ، ان هذه الا أبقارنا ، لنعلق فى رقبة الواحد منها حجرا ، ونوثقه توثيقا شديدا ، وأطلقها تسير والأحبال معه ، وان أبت السير جذبها ، تعلو الساق المربوطة وتمشى الفيران ينقلون ثلاثا ويجبدون الحجارة ، الولد يصيح بها صيحاته بالبقر ويضربها بالعصـا ، ويسرف فى الضرب حتى ماتت ، كل واحـد منهـا داخ وانتفض وقاء دما •

هكذا ماتت فيرانه الأربعة ، فانطلق ينظر فى أمر الأطفال • أرض الجرن مغطاة بجثث الفيران ، يركلها، بعض الصغار فى أيديهم بعض من فيران يلهون بهـا ، لقد ملها • لم يطل النظـر ولم يتـوقف بهم ، مضى ، الحقول ملئت بالماء حتى فاض ، اندلق فى الجرن صانعا بركة ، وقف الصغار على الحافة يدورون بها ويقذفون الماء بالحجارة • لحق بهم • البركة مملوءة فئرانا تقوم تخبطها قذائف الطوب تصيبها فتغـوص ، أو تطفـو لتنصب القذائف عليها مرة أخـرى • والشـــواطىء

محروسة ، كل فرار مدرك ، يضرب الفيران فترجع الى الماء · صاح الولد أن آه لو كنت أطلقت بقراتى هنا ·· وأخذ من الطوب يقذف الى أن غرقت الحيـوانات فى الماء العكر ·

والوقت صار الى اصـفرار الشـمس ، والمغـرب وشيك · آب العيال · يمشون فى جماعات ، يضحكون ، ويلعبون شقاوة ، لكنهم المتعبون · يحكون عما كان من أمر الفئران ·

آه ياولاد ·· آآ

• الخوف :

كنت مخمورا أحاول جهدى أن أستجمع وعيى ٠ سائق التاكسى رصين الكتفين ، والعربة تمرق على الأسفلت المبلول المضاء بمصابيح الطريق ، يبدو أننى مريض بالكبد ٠ كمية الخمر الرخيصة ، معدتى تثقل على وعيى مثل كلكل الجمل ، لكننى يقظ وعارف ، ومن طرف خفى أرقب تتابع الأرقام فى عداد التاكسى ٠

هذا السائق كتفاه تتساوقان فى حركة رتيبة أكيدة ٠ بعد لحظات سأقول له :

ـ هنا ٠٠ !

عندئذ يقف وأعطيه حسابه ٠ سآمره بالوقوف فى صوت خفيض ، لكنه قوى وآمر حتى لا يلحظ أننى سكران ٠

عيناى على عداد السرعة ‥ تسعون كيلومترا فى الساعة . يارىى . العربة تسليني بهذا المروق الخارق على الأسفلت الناعم . أطرافى باردة بخوف مبهم :

ـ هنا ‥ على اليمين ‥ !

بليونة وقفت العربة . تفتحت عين خضراء فى لوحة العدادات . ضغطة هينة على مقبض الباب انفتح، المعدن صقيل بارد . العربة جديدة متحفزة .

بعينين ساجيتين متعاليتين ألقيت نظرة على العداد، أنا أعرف مافيه سلفا ، لكنني حريص على أن أبدو طبيعيا . بأناة خلعت قفازى ودسست يدى فى جيب معطفى وأخرجت ورقة ذات خمسة جنيهات . عليه أن يرد لى ثلاثة جنيهات .

بنفس النظرات الساجية المتعالية تأملت كفه القابضة على ورقة النقود ووجهه الذى تنعكس عليه أضواء لوحة العدادات . سألني وأسنانه تبرق بيضاء لامعة :

ـ معك جنيهين !

ـ لا ‥ !

ثم ترقرق في قلبى الأسى فأردفت :

ـ آسف ‥ !

ثم قلت متوسلا :

ـ لا يهم ٠٠ !

لكنه آزاح رجائي بقبضته القوية ، ثم جذب محول السرعة وقفز بالعربة تاركا في أذني أمرا باترا :

ـ انتظرني هنا حتي أعود لك بالباقي ٠٠ !

تسمرت في مكاني مرتبكا وخائفا قليلا ٠ تتعلق عيناي بالعربة التي تبتعد مسرعة ، وجدتني وحيدا ٠ في مواجهتي على الضفة الأخرى من الشارع صف طويل من أبواب الدكاكين عمياء صامتة واقفة على حافة امتداد أسفلتي لا متناه ، مضاء بمصابيح الطريق ٠

صمت مريب ٠ الوحشة تزحف على من جميع الاتجاهات ، وأنا في بؤرة مخيفة ٠ انطلقت مسرعا الى بيتي ٠ حذائي يضرب حصاء الطريق في ارتباك ولهفة ٠ أسرع ، أزيد سرعتي ، أفر هاربا ٠ دفعت الباب الحديدي فصر صريرا عاليا ككلب دست على ذيله ٠ صعدت الدرجات القليلة قافزا أتلفت ورائي كالمطارد٠

فجأة ملأ سمعي ضجيج محرك السيارة ٠ لقد عاد ، بدأ يطلق نفيره بقوة ٠ يدى تبحث عن ثقب المفتاح ، النفير يلح وأنا أبحث عن الثقب في لهفة ٠ النفير يدوى رهيبا ٠ المفتاح يصطك بكل مكان ماعدا ثقب المفتاح٠

بدأ السائق ينادى ، يزأر كحيوان مفترس :

ــ يا أستاذ ٠٠ لك ثلاثة جنيهات باقية ٠٠ !

صفقت الباب ورائى بقوة ، فى ثوان كنت قد خلعت ملابسى ، وطوحت بها ، وقفزت الى سريرى ، وأحكمت الغطاء حولى ، ومازال السائق يزأر :

ــ يا أستاذ ٠٠ لك ثلاثة جنيهات باقية ٠٠ !

تشبثت بالغطاء وأنا أرتعد ٠ أحاول أن أهوى الى قاع اللاوعى لأنجو ٠

هدر صوت العربة راحلا ٠ أحسست بالخلاص ٠ لابد أن الشارع الآن ساكن تماما ٠ عيناى مغمضتان ، الحذر يضغط على وعيى يدوسني بأقدام ثقال ٠ ذلك الامتداد الأسفلتي المضاء بمصابيح الطريق ، فتحات أبواب الدكاكين امتداد شاسع ، يوغل فى البعد حتى لأحس بالدوار ، مستطيلات واقفة متتابعة فيها مسوخ شائهة ٠ ناس ، أو هى جثث فئران هائلة هائلة متآكلة ٠ ظلام تام ما عدا هذا هذا المستطيلات المضاءة التى تقف فيها هذه الأشكال المخيفة ٠ فى داخلى تسح دموع دافقة ٠

● حالات الجسد :

ركب عربة عسكرية يقودها جندى ، واثنان أخران يجلسان فى المقعد الخلفى ، صـامتين ملتبسى الوجهين بمشاعر غامضة ، أمامه تسير ناقلة وقود ، هـو فى حراستها • يعرف أن طائرات العدو تغير عـلى طـرق النقل التى تسير عليها قوافل الامـداد ، ويعـرف أن الفترة التى تمتد بين اغارتين عميقة الصمت وشـديدة الاملال ، تفصل بين بأساء الحرب •

وهو بذلك يكره العدو حين يهجم وحين يتركه ينتظر الهجوم ، لكن أى نوع من الكراهية تملكه •• ! ليست أبدا هى التى سودت قلبه يافعا وشابا فى قريته البعيدة عن مرامى النيران ، الآن يعرف جيش الأعداء ، يعرف أفراده ، يرى وجوههم ، الأيدى تحرك آلات الهلاك ، الأجسـاد الغضـة تردى بالرصـاص وتطعن بحـراب

البنادق ، المعرفة اذن حميمـــة ، كيف يقتلهـم أيضا .
ويخاف الى الرعب أن يقتلوه .

عربته العسكرية تسير خلف ناقلة الوقود ، تئز دواليب العربات فى جوف الصمت ، ثم اذن ينقسم من أزيز العربات صفير طائرة مغيرة ، تنبـه جســده ، اليقظة تسرى فى عضله أمشاجا أمشاجا على قد الصفير المحلق . التفت الى جنـوده الثلاثة ، يسمعـون وتقتم الوجوه وتزم الشـفاة وتضيق العيـون ، أمامه تدب الناقلة . هـل تأرق سـيرها ؟ والطـريق آت من عمق سحيق ، مرسوم مجراه بالأسـفلت ، وحـواليه فراغ مزحوم بتلال الرمل . والصفير يجيء من خلف السحب ، يرطم القمم الرملية ، ويتردد مضـطرب الاصـداء ، تصلب جسده . انتبه ، زفر ، تحكم فى المشـهد عـلى جانبيه وأمامه ، يأتى من خلف النـاقلة ، يوغلان فى الأفق بطيئا . ينتفخ قلبـه والمـخ بالصفير من ثقبى الأذنين اللذين اتسعا بآلة الخـرم المـدومة ، انقضت الطائرة ، وقفز الجنود ولحق بهم ، انبطحوا .

دفن وجهه فى الأرض خلف نبتة جعضيض ملتفة . أنفاسه تجذب له ريحها وذرات من الرمل الذى يريح عليه خده . تقبب رأسه ، وعلت قبتها ، حتى لا تصيبها رصـاصات الطائـرة التي تحلـق وتهبط فى دورات متتالية . وقشرة رأسه تعلو كل مرة لتستقبل الطلقات،

ترن فى التجويف فى كل جسده . لكن قدميه أوغلا فى البعد ، سرحا فى الأفق من وراء ظهره ، فلا طاقة له على أن يحركهما ، ولا طاقة له على يديه أن يمدهما يستر بهما قمة رأسه من القذائف ، والقذائف تنتشر ، تصيب كل خلية من خلاياه ، يحس بها ، يحس الوخز فى كل واحدة على حدة . وسط الألم ، وسط كل هذه الضجة كان يحلم بما حصل .

هجوم الطائرة كابوس يعانى منه الجسم ، يرقبه فى صفيرها خلف السحب . يشتد الصفير .

انقضت ، صرخ فى جنوده ، ولحق بهم ، انبطح على الأرض وفى أذنية الضجيج ، وفى عينيه خيال الناقلة وجسمها مرشوق بالقذائف ، تميل من على الطريق وقد تخلى عنها سائقها وزملاؤه . تمضى مترنحة ، جراحها التهبت نارا ، حتى رست على تل من الرمال . صارت كتلة لهابة ، متى تنفجر .. ؟

والطائرة تذهب وتجىء ، وفى كل مرة تفرش الأرض بوابل من الجحيم ، ثم انكشحت ، اختفت ، غاب صفيرها . ثم يسفر وجه الأرض عن تشوهاته ، عن النار والدم ، عن البقايا من الحديد والأجساد ، ثم يسفر وجه الوقت عن الانتظار الممل للغارة المقبلة .

ثم قام ، وقام من حوله من بقى من جنوده ، تأمل حوله ، مطروحون على الأرض قتلى ومجروحون يتأوهون من الألم . انها تلك حالات الجسد ، مقتول أو مجروح أو سليم ، يعيش يرقب الضرب .

● ترديد ألمانى :

اليوم من أيام مهرجان الفيلم فى برلين الغربية - الميدان مضاء بالألوان الباهرة ، لافتات مكتوبة بحروف براقة ، ضخمة ، كابسة على أرواح الخلق ، ينكسون رءوسهم ويمضون فى اتجاه دار العرض الرئيسية - واجهتها مزينة بصور الممثلين بحجومهم الطبيعية ، تنعقد فيما بينهم مشاهد مثيرة ، ويكادون يتكلمون بالمقولات الرنانة ، لكن أحداً لا يسمع منهم ، وعلى الأرض تشغى الدنيا بالناس -

ضيوف العروض من الناس الألمان ، كل صحب زوجته ، أو صحب صاحبته ليطرفها بفيلم من أفلام المهرجان ، يقفون فى صفوف طويلة ، ينتظرون دورهم للحصول على تذكرة الدخول - يقفون صابرين وبعضهم

يتسكع قدام لوحات عرض الصور ، أو يستمتعون بقرطاس من الايس كريم ، كل له شأن فى الاستمتاع بمسائه ، لكن كلهم بساموں مهذبون ، وناس صناعة الفيلم ، فاتنون فى ملابسهم العجيبة ، يكركعون بالضحكات ، ففيهم كثير من الأجانب ، وعلى الأخص سود وسمر وصفر حتى شابت البيدر الألمانى بحبات سمراء غاليه . ويلاحقهم جيش من رجال الاعلام ، يحملون آلات التصوير وكشافات الضوء وساعات أجهزة التسجيل ، يقتربون بحذر وكثير من الحشمة من رجال السينما ويسألونهم . هكذا يدور المهرجان ـ وكثير من التفاصيل نسيت ـ على أشده بضجته وزياطه ، اذ انشق الميدان الغارق فى الضوء عن رجل أسود هائج ، شرب حتى ما عاد يميز الأحوال والتزام الأدب . دار يبرجس هنا وهناك ، يفيض الرغاء من فمه ، يقبض يديه ويرفعهما ، ويشتم ويسب ، ويصدم الناس بكتفيه ، بظهره ، ويدوس عليهم اذا مضى متقدما .

الناس الألمان يؤمنون أشد الايمان بتقسيم العمل ، فليس من شأن أى منهم أن يوقف الرجل الاسود ، انما يخشون أن يصدمهم ، يعكر مساءهم ، يتحاذرون يكتمون شتائمهم ضد الأجانب ، ويصبرون ، وهم يتلفتون ينشدون رجل الشرطة . فلا يأتى أبدا ، الاسود يصرخ ويعلن عن هويته :

« انه مناضل من بلدة كذا ، وكم ضرب الاوربيين بالرصاص وكم عمل كذا وكذا ٠٠ ! »

ثم يصرخ هنا وهناك ٠

الناس جاءوا الليلة هنا بقصد الاحتفال ٠ فهذا المكان ليس مهوى شباب النازى ، الذين يمشون جماعات متحزبين متعصبين وكيف يعرفهم الناس ؟ بحلاقة رءوسهم ، وتكشيرة عميقة على وجوههم ، وطول قاماتهم، ومشيتهم العسكرية ! ليس هذا المساء ، ولا هذا المكان مهوى لهم ، الا واحد يمضى صارما بين الجمع تتقدمه جهامته ٠ فاذا رآه الاسود تحفز ، وهو حدج الاسود بنظرة يتطاير منها الشرر ، يريد أن يلزمه الأدب ٠ فاذا رأى الاسود قصده أقبل عليه وصرخ فيه وانقض عليه ينشب فيه أظافره ويضربه فى كل مكان من جسمه بيديه ورجليه ٠

اذ ذاك انفكت عزائم النازى وطار جريا من أمام الأسود ، وطار الأسود وراءه كنسر ، حتى ألجأه الى ما تحت صور العرض لدار سينما خاصة بالأفلام العارية ، صور العرض لمرأة متهتكة ، تأتى بحركات مبتذلة ، والولد النازى متكوم عند أقدامها ، والاسود يركله ٠ ثم نظر للمرأة ، وضحك لها وهو يرفع يديه مقبوضتين ، ويصرخ فيها بكل قوة ، والمرأة لا تبالى به ٠

رست عربة الشرطة جنب الرجل الاسود ونزل منها جندى برلينى ، هادئا راسخا يعرف عمله ، وعلى بعد خطوات منه وقف زميله ويده على مسدسه • نصب الشرطى حول الاسود شبكات نظراته ، أوقعه كحيوان فى فخ صياد • ارتعب الاسود ، والشرطى زاد تمكنه من فنه • طلب منه جوازه ، أخرجه وهو يبربر بلغته القومية ، والشرطى لا يهتم بذلك ، وضع الجواز فى جيبه وسأله ان كان ضرب هذا الرجل ؟ وبين الكلمة والكلمة يهمس فى جهاز الارسال المعلق فى جنبه • قال له الاسود انه هو الذى بدأ بالعدوان ! أمره الشرطى بركوب العربة ، وهو محاط بشبكة نظارته حتى أحكمت عليه ، صحبته الى داخل العربة ، فى أثناء ذلك جاءت عربة الاسعاف حملت النازى • ومضت العربتان وئيدا بلا صوت ، وعاد المهرجان يصل الى أوجه من غير ازعاج بعد •

● الذبح ·· والذبح أيضا :

هو يكبرني بعدة سنين ، لكن دماثته وطيبته تقربني منه ، هو قريبي ، وله عندى معزة خاصة · آه على الأيام الجميلة التى انصرمت وعددتها رجوعا الى الماضى البعيد ، أيام كنا نسكن فى عمق الحارة ، وكانت الدنيا تعفينا من السؤال ومن همومها ، وتفرد لنا كفوف الراحة نلعب حتى نغلب · وبعد اللعب كنا نجلس نتسامر · وكان يخصنى بأسراره ، ما يشغل فؤاده ويثقل على احتماله ، وأنا أسمع مبهورا ، وأعقد فى قلبى صرة على ما سمعته منه لا أفرط فيه أبدا ·

كان واحدا من عدد كبير من الاخوة والاخوات ، أسرة أضربها الفقر ، وضرب بالصفرة فى جباه الاخوة والأخوات وكسر العيون بالذلة ، والابتسام

بالخجل الحيي ، والتقلق ازاء ما هو مقسوم ، كلهم يسكنون فى بلاقع دار مكنوسة من كل آثار الخير والعمار • والرجال فى وسط الدار ينظرون ، كل واحد منهم استأثر بغرفة له ولامرأته وعياله ، أما النساء الأخوات فقد ارتحلن عن المطرح بالزواج ، وملأته النسوة الغريبات نسلا وصخبا وزياطا وكيدا ، كل تكيد حتى يتسع لها الشبر الذى يخصها من الدار، ويتآمرن ويتشاتمن ويسرقن ، والرجال صابرون ، كلهم يكتمون الغيظ ، طيبون ويضحكون • أما هو فانه يدور حائرا مثل ظل منكسر ، يتقلب بتقلب الضوء • فاذا ما جن الليل صعد الى السطح لينام ليالى الصيف ، يدنى جلبابه ويثنى ذراعه وسادة لرأسه ، وفى الشتاء ينام فى وسط الدار مدفونا فى كومة التبن ، ويأتى الى فى أماسينا يضحك ، يحكى لى الحكايات ، وأضحك ، لكن مرارته تعدينى ، وينتهى وقلبى مفعم بالمر من طعم حديثه •

ثم كانت خطبت له فتاة عروسا ، جاء لى بخبرها يحكى ، تجاسرت أسأله عن سر نكده من حظه بالزواج: قلت له :

— ألست سعيدا بالفتاة زوجة لك ؟ ماذا بها ؟ قل لى يا أخى ونورنى •• !

قال لى :

ـ ان على الواحد اذا كبر ٠٠ أن يتزوج ، ما للرجل فى ذلك يد ٠٠ !

سمعت مقاله وشدهت والتبس على الأمر ، وتعست للقران ما فيه مسرة لقلب ، وآخيرا ضحكت على ضحك قريبى ، أصبحت الدنيا تسـألنى وتعنف فى سـؤالى ، وأترحل فى الأرض وراء أجـوبة المسـائل ٠ آه لأيام اليفاعة ، وارخائها الحبل لى فتطيب لى الدنيا والعيش، كل آن يلذ لى أن أرجـع لبلدى وحسـان الذكريات ، وأزور قريبى ٠ وفى كل مرة وجدته جالسا قدام داره يلاحظ بضعة من المعيز ٠ وأنا أحب هذا الحيوان ، انه نظيف وأنيق وألوف ٠ قال لى قريبى :

ـ اننى أتركهم يدرجون فـىالحارة ، يرعون فى البقايا ، يسمنون ، وفى ذلك ييسر الله الرزق ٠٠ !

ارتجفت بما تخيلتـه من حسـان المعيز معلقـات بالحبال يسلخن وتبقر البطـون عن الأحشـاء ٠ وأنا شارد خايلنى شبح امرأته ، صفراء ذابلة تحمـل الى صدرها وليدها يبكى علته ، يزن عـلى ايقاع تربيت الأم وترجيع كلمات بكائية ٠

وما عدت مضطرا لخوض حارتنـا حتى آخـرها نشدانا لبيت قريبى ، انه ابتنى على رأس الحارة ، قام

من فوره يستقبلني ، ألقى من يده بسكين الجزارة ، ولحم عظيم معلق بالحبل ، وجلبابه غارق فى بقع الدم، حياني ، وخلفه من ورائه في وسط داره امرأته الجديدة ، زوجة له فحلة مشغولة بأمور المعاش ، وهو يشد على يدى ويضحك ، وأنا لم أعد أضحك على ضحكه • صمت كنت موشكا أن أقول له :

ـ يا قريبى •• كف عن الذبح •• كف عن الذبح يا أخى •• !

لكن الدنيا ما تركت له خيارا •

ولما خرجت من حارتنا قاصدا السفر وجدت قريبى وفى يده حبل ومعه اثنان من مساعديه يحيطون ببهيمة، شابة فارهة من الجاموس ، يدورون بها ، وهى حذرة فطنة تعرف قصدهم • عيناها واسعتان بالرعب ، وعيون الرجال ضيقة بالشر • تدلى البهيمة رأسها ، وتشرع قرنيها متحفزة ، وتدور حول نفسها بدورانهم حولها • اذ انقض قريبى على الجاموسة انقضاض النمر ، يشبك الحبل فى ساقيها ، وجذبه فألقاها على جنبها ، وأسرع المساعدان يركبان الشابة ، فاذا بها تلقى بالرجلين ، وتنهض تخلص سيقانها من الحبل وتستقيم واقفة ، حية فى مواجهة الموت ، لم أر مثيلا للهاثها والرغاء والرعب فى عينيها ، وقرناها مشرعان حذر الهجوم •

وهاجموا ، كبل قريبي أرجـل الذبيحـة ، وركب الرجلان على رأسها وبرقت السـكين · لمعت · مضت مسرعة ملهوفة في لحـم الرقبة وتفجر الـدم ، فـاض نهره · أمشي طريقي الى المحطة ، أمر بالناس والدور، تخايلني نوافير حمراء تصبغ كل شيء · تذكرت أنني لم أقرىء قريبي سلام المسافرين ، انني لم يكن لى في ذلك خيار ·

مطـر ... !

انه الشتاء ! غلقت من دونه الباب والنوافذ ، لكن المطر ينهمر فى الخارج ، والبيت معتم رطب عطن . تنظر حواليها وتنصت خائفة . عليهـا اليوم أن تبقى هنـــا وحيـــدة فى حبـــس الغـــرف . اليـــوم الأحـــد عطلتها المدرسية الأسبوعية ، أما أبواهـــا فقـــد ذهبـــا لعملهما . لا بأس ! ينبغى على الواحد أن يجرب الوحدة أحيانا ، وأن يألف معايشة الخوف وسلطان الصمت .

قامت من على الأريكة فى الردهة تاركة وثارتهـــا ودفء مطرحها لتخوض البرودة القليلة الضوء . تمشى خطى حذرة مترددة ، كأنما تخشى مجاهيل متربصة ، صوت المطر والريح متواصل ملحاح ، تقطعه انفجارات فجائية راعدة مكتومة ، زمجرة عناصر اليوم الشـــتوى

فى الخارج تدق بقبضات هائلة على الجدران ، توشك أن تطبق على شرنقة وجودها بالبرد والبلولة ٠

تنقل خطاها متلفتة ، ماضية الى غرفة نوم أبويها ، يقابلها الصمت الرطب ، ورائحة النوم مازالت ، شيء يصحو فى غرفتهما اذا غاب الأبوانِ ٠ ها هو هنا الآن. يتسلل الى أعماقها من مسام كيانها يملأها تأثما وشغفا ، يأخذها الى حضنه الناعم الوثير ، ويهمس فى رقبتها همسا مدغدغا دافىء الأنفاس ، جلست على حافة السرير مستسلمة ٠ أغمضت عينيها على رسمى الشباكين فى الحائطين ، ضوء فضى يتسلسل من فرج المصاريع المحكمة الاغلاق ، يتشعشع فى حرير الألحفة والحشايا ورسوم البسط ، وصور الحائط ٠

صوت الشتاء مدمدم ، يضرب فى قلبها ، تبقى حبيسة الغمض ، تحب غرفة نوم أبويها ، غابا عنها فأصبحت لها وحدها ، وسرها القليل الضوء الثقيل الريح الحريرى الوثير المهول بالصور والرسوم وجسوم السرير ومائدة الزينة والخزانة ، فتحت عينيها على مرآة خزانة الملابس قدامها ٠ .وجهها شاحب وسيم أثار فيها الحزن ، أحبت نفسها حبا حميما حتى ترقرق الدمع فى مقلتيها ٠

جسدا الوالدين بصما مكانهما متباعدين يفصلهما

نتوء مستطيل على حاشية السرير ، أى صـمت عميق يعمر المسافة الفاصلة ، من خلف ذلك كان صوت الأب يأتى غاضبا منذرا لكن له رجع باك ، وأم لها جـواب عنيد متشبث مقهور ، ترفـع البنت عينيهـا الى مرآة الدولاب ، فى الضوء القليل تلمح الظلال والحمرة ، حول عينى أمها وفى عينيها أيضا ٠

عناصر اليوم الشتوى تنشر فى جسدها الخوف ، وفى قلبها اللهاث٠ أهى العناصر رهينة باليوم الشتوى، أم لها فى المساء ، فى ردهـة بيتهم ، رجـع صـارخ مكتئب ؟

الأب تحلق عيناه حول الأم ، مليئتان بالقهر والمذلة، وجهه محتقن مزرق ، والأم محلقة حـول وجه العـم ، شفتاها حلوتان عقيقيتان ترتجفان ، وفى عينيها غسق، ويداها توشكان أن تمتدا على وجه العم ، تأخذه بينهما ، وتضغط على وجهه الشاب فى قوس يديها السـمراوين النعماوين وفى آخر المساء تذهب البنت الى فراشـها ومعها أحلام جميلة ٠

وابتسمت لنفسها فى مرآة خزانة الثياب، والدمعتان تترقرقان فى عينيها مثل لؤلؤتين صغيرتين ، والمطـر ينهمر على مصراعى النافذة من الخـارج حتى يتغبش الزجاج ٠

أمهـا حكت لهـا أن سائق الحافلة انحرف بهـا من شارع (وادى النيل) ، وصعد مع شارع جانبى (الى ميت عقبة) ، الى حيث باب بيتهم . والركاب مذهولون طائطون يصرخون يسألون ماذا غير من مسار الحافلة ؟ وأنا واقفة بجوار مكانه خلف عجلة السواقة ، مندهشة ، أتنفس بقوة ، قلبى يخفق ، مزهوة بساعديه الهائلين ، يدير بهما العجلة ، ويطير بالحافلة كأنها مرهونة بقوته الخارقة ، ووجهه مزده ياللون الرائع • حتى نزلت على اندهاش رواد المقهى وضحكاتهم ، التفت له ، فى عيناى رجـاء وشفتـاى ترتعشان ، لو يحملنى الى شقتى ، الى زفافى •

قلت له :

ـ انك لن تقود حافلة بعد !

والأصوات فى أذناى ، زياط الراكبين وضحكات رواد المقهى • ارتعدت وأنا أقول له :

ـ انك لن تقود حافلة بعد !

ثم اشترت له الأم عربة صغيرة (عربة أجرة) يدور بها فى المدينة كل يوم ، وفى المساء يأتى لأمها بالحساب ، تصنع الأم الشاى ، والأب يرفض كوبه كارها حقودا والبنت الصغيرة تنطوى على نفسها فى ركنها خائفة •

ولكنه يأتى حينما تكون البنت وأمها وحدهما فى

الشقة . ترتجف البنت من تذكرها . تنصت لصوت المطر ، لم يعد ينهمر سياله على مصراعي النافذة ، فقط قطرات متباعدة حزينة .

آمها تفرح بالعم متحررة معه متبرجة مزدانة ، وهو مرح صخاب ، والبنت تضحك لهما .. والآن تصل فرحتهما الى الأوج . حينئذ ينبغي على أن أذهب لأشترى له علبة سجائر ، سيحدث هذا حالا أو بعد فترة من الوقت ، انني أنتظر دورى ، ثم تنتعل حذاءها . أمها تنظر فى أعقابها متعذبة العينين ، والبنت تبتسم لأمها مشجعة ، وخرجت من شارعهم الى ظهر المدينة .

المدينة حلوة . الدكاكين حافلة بالأشياء ، قمصانات ، وتنانير ، وأحذية ملونة بالذهب وقوارير العطر . ومشت البنت ، تظل تمشى حتى تدوخ ، حتى جاعت . تنبهت على رائحة الشواء . ستشترى لنفسها شطيرة محشوة باللحم . لن تلومها أمها ، وسيضحك العم ، يدللانها هما الاثنان . أكلت ، ودارت ، ولفت ، حتى فات من الوقت ردحا طويلا .

رجعت ، صعدت السلم مترددة ، طرقت الباب حذرة . فتح لها العم ، والشقة رائحتها مكتومة ، واللون فى وجه الأم مزده قاتم ، أمها تعدل ثيابها ، رائعة حينما ينفرج طوق الثوب ، وينزاح فضل الذيل ، فتخجل الأم ويخرج العم .

من مجلسها على السرير قامت • فتحت خزانة الثياب ، تقلب فى ثياب أمها ، نظيفة مرتبة ، معطرة • قالت لها أمها بعد أن انصرف العم :

ـ اشترى لى هذا ، هذه القميصة المحلاة بالمخرمات، ثم اشترى لى زجاجة عطر ، ثم اشترى لى عمامة ، أضعها على رأسى فوق خمارى ، ألا ترين أنها أشياء رائعة ؟

البنت تمشى بيديها على حرير القميصة ، تمشى اللمسة فى ذراعى البنت الى جسدها فيعلو نفسها ، يسمع بعد أن انقطعت قطرات المطر ، ونورت الغرفة من الشمس التى طلعت فى الخارج •

الغرفة صامتة ، البيت كله صامت ، لا يسمع أبدا الا صوت حفيف أنفاسها • بدأت البنت تخلع ملابسها• وقفت عارية قدام مرآة خزانة الملابس • نظرت ، اللون الوردى على جسمها ، ويقتم هنا وهناك • لهثت ، عانقت اللا شىء ، ضمتها لنفسها بقوة ، تميل برأسها مغمضة العينين لتستر حالها عن ذاتها •

أحست به من ورائها ـ العم ـ برودة جسمه تلامسها، اقشعرت ولهثاتها تتلاحق • انطبع عليها ، وصار دفيئا • عزمه ونتوءاته تنوشها ، ساخنة ، وهى تتقوس للأمام وهو يلحقها • حمى أنفاسه تكوى رقبتها، يجمعها بساعديه ويحكم التصاقه بها • ضاعت لهثاتها فى

اشتجار أنفاسه ، ثم صرخت ، صرخت مرعوبة ، فتحت عينيها ، كانت وحدها في مرآة خزانة الملابس. التفتت لترى أمها متمددة على السرير الى جوار عمها . ضحكت لوهمها أنها تراهما . هما مازالا خارج البيت ، وصورة أمها جنب عمها صنع خيالها . ضحكت . ضحكت لأمها ثم قالت لها :

ـ يا امي ، اتاذنني لى يا أمي ان ارتدى ثيابك ؟ وأتعطر بعطرك ؟ والون اظافرى بطلائك ، وأحمر شفتى بأحمرك ؟ أتمنى أن أكون حلوة متلما تكونين يا أمي !

ضحكت الأم ، وضحك العم ، والبنت ضحكت مكركعة في وجه أمها وتبادلت نظرات خفرة .

بدأت تطلى أظافرها ، وتعنى بوجهها عناية العروس ليلة دخلتها ، ثم تعطرت وتناولت القميصة الحريرية البيضاء المحلاة بالمخرمات . تم ارتدت التنورة الطويلة من الكشمير الأسود ، وتخمرت بطرحة أمها البيضاء . وضعت العمامة فوقها وشدت أشرطة العمامة المذهبة ، تلفها فوق رأسها ، اكتملت زينتها ، البنت صارت فجرا مشرقا في مرآة خزانة الملابس ، أتخرج بزينتها هذه ؟

الحيرة في عينى الأم وعينى العم ، فى رقادهما متجاورين على السرير ، تتوسل اليهما منكسرة الصوت تقطع كلماتها لهثاتها :

ـ يا أمي . الشمس في ظهر اليوم الشتوى كانها صبح مبكر ، صبح مبلول والناس فرحانون ، يظيطون بظهور الحسن في المناخ ، ألا انزل يا امي ليزفوني عروسا ؟ قولي لى آن أنزل لهم !

ومشت خطوات خارجة من الغرفة وفي يديها حذاء الأم المزين بشرائط مذهبة وضعته في رجليها بدأت تدب من على السلم الى الشارع مترددة فرحانه .

النـاس واقفون أمام البيوت وامام دكاكينهم في عيونهم الفزع من اكتظاظ الشارع بالوحل والزبط ، كل يد تذود الوساخة عن اقتحام الأبواب والحيطان مبلولة ، والشمس منصوبة فوق الشارع ، تترك الألواح الذهبية لا تنجح برك السكة في تلويثها . مكبرات الصوت ترتل آيات الذكر الحكيم ، وبعض الدكاكين مولعة بأم كلثوم :

انت الآمل اللى احيا بنوره

كل هذا وسط الظياط والصراح والتفادى والتحاذر والضحكات على الناس اللذين وقعوا وتلوثت ثيابهم . وزوج الخيل معلق في عربة تكافح الوحل والحوذى يسوطهما ويصرخ بهما ، والناس يصرخون به أن أخذ عليهم الطريق فلا يستطيعون المرور .

البنت وقفت على العتبة مترددة ، آتمضى أم ترجع

انقضت عليها ابتسامة صاحبة الدكان فى مقابلة بيتهم :

ـ امض ٠٠ امض ٠٠ امض ، تخيرى لموضع قدمك بقعة جافة أو طوبة امض ٠٠ امض !

فتسندت على الحائط ٠ وبدأت تدوس على البقع الجافة ، وعلى كل طوبة تصادفها ، والشمس المبلولة والظياط يبعثان فى جسمها نشوة عذبة ٠ وكلما خطت يصيح الناس بها من على أبواب الدكاكين ٠

ـ هيه ٠٠ هيه ؟

حتى اذا مهوى الماء ، يجتمع فى عتبة غائرة ، فلم تستطع تجنبها ، فسقطت بحذائها فى بركة الوساخة ، فأسرعت بيديها تتشبث بالجدار حتى تنجو من السقوط، بذلك أفلتت تنورتها من يدها فانغطت فى الماء ٠ انطلق جمع أصحاب الدكاكين :

ـ يا خسارة الحذاء الذهبى والتنورة فى الطين يابنتى !؟

البنت تسندت خارجة من الحفرة ٠ كيف تخيلت انها ستبقى بمنجاة من وحل الشارع ٠ دمعت عيناها ، مشت الى دكان الخبز بعد مبنيين ٠ اشترت الخبز ورجعت، فاذا أمها تقابلها راجعة من عملها ٠ جاوبت الدهشة والذعر فى عينى الأم بكلمات مرتبكة متعسرة :

ـ كنت يا أمى أشترى الخبز لغذائنا !؟

الأم مضت ، حذاءاها وطرف ثوبهـا غارقان فى الوحل ، والبنت تتبعها ٠

حينما ولجا باب بيتهمـا ، التفتت الأم لابنتهـا ، تتأمل زينتها وعطرها ، واحمرار شفتيها وخديهـا ٠ لبثت تتأملها مليا ، ثم استدارت ، وأسرعت تصـعد السلم ٠ فتحت باب شقتهم ، وانهارت جالسـة ، وهى تستر وجهها بيديها ، وانخرطت فى نوبة بكاء حارقة ٠

البنت أغلقت باب الشـقة ، وجلست قرب أمهـا صامتة ، الأم تنشج نشيجا مرا ٠ نكست البنت رأسهـا تتأمل وحلها ووحل أمهـا ٠ تمنت أن تقـوم وتخلع ملابسها وتغسل وجهها ورجليها ، وتذهب الى حجرتها لتنام ، لكنها واقعة فى أسر بكاء أمها لا يفلتها ٠

١٩٨٨/٣/٤

الجراحة ٠٠ !

● الى سجن أسيوط :

هكذا ٠٠ ، سافرت من سجن الواحات الخارجة الى سجن أسيوط ٠ أزيز العربة وصخبها يضيع فى صمت الصحراء الأبدى أتأمل ٠ ٠٠ حتى لكأننى أسمع ركز الصخور ، يربطنى بها شمس مسلطة ، حارة وخانقة ، يتموج ضوؤها الباهر ، يتقلب فى تقلب التراب ، يثور عواصف ، ثم يخلد لناموس الصمت ٠

حتى أشفينا على وادى النيل ، فعرفناه من برودة نسائمه على جلودنا وجباهنا ٠ نسيم مبلول ذيوله بمساحة الماء ٠ والعيون تفتحت ، تبصر الأشياء فى ضوء قل ٠ ياسلام ٠٠ ثم نزلت من العربة مخفورا بقيد الحديد ٠ انه يجمعنى مع شرطى ، يكبلنا من معصمينا، يمينى فى يساره ٠ ونحن راضيان ، انها اخوة رباط

الحديد ، وهي العـداء يولدها القسر • يتخـالطان :
الاحن والمودة ، أصبر ، وينزق الشرطي ويثور ، حتى
يجد ليونتي ويرضى كبرياءه المقيد بالحديد فيئوب الى
برباط الذل •

انني كنت مريضا منذ زمن صويل بالتهاب اللوزتين،
وتناوبتنى الحمى ، وقالوا ان ذلك أثر على قلبى فضاق
صمامه • انهم زملائي مسجونون سياسيون ، لكنهـم
أطباء ، لهم سحن عليمة ، وعيـون تضـيق بالتـأمل ،
وأصابع خبيرة مدربة • وبعد ذلك فهم فى ثياب السجن
تزدريهم العين • التفوا حول الطبيب الذى يطل علينـا
كل آن ، قالوا له شديدو التأدب : « ينبغى أن يجـرى
جراحة استئصال اللوزتين •• ! » وهــكذا جئت الى
سجن أسيوط ، ومنه الى المستشفى الأميرى •

فرحت بالرحلة ، وأخذنى الهم من تكاليف القهر على
ذات نفسى ، فأسلمتها لعسف الشرط والضباط ، وأنا
صامت شارد العينين لدن الجسد ، يســتجيب لدفعهم ،
وعرضى يتسع لشتمهم • سار بى شرطى طويل متخلع
المشية ، يحجب عنى الرؤية من أمامي ، أمشي وراءه
لا تحيد بصرى عن كتفيه ، انما أرى الأشياء اذا زاغت
عيناى فى اليمين وفى الشمال • ياخلق الله •• هؤلاء
ناس الصعيد ، يا لسحن السفعاء ، وشوارب كثة وصياح
وصراخ وضحك مكركع ، أرقب ، ثم تعـود عينـاى

لتستريحان على ظهــــر الشرطي الذى يقـــودني الى زنزاتي .

تأملني السجان المكلف بحراسة باب العنبر ، تمطى ذلك الرجل ، ودفع قدماه في حذاءيه الكبيرين من خلف الترابيزة التي يجلس اليها . كلمني « ما الذى حملك الينا هنا يا ولدى ؟ عـــلاج آه ! الحـق بزملائك في الدور الرابع ، كلهم مريض ، كلهم ينشدون بعضا من الطراوة بعد أن تقددت جلودهم من شمس الصحراء !» ثم قيدني في دفتر العنبر ونادى عـــلى من أحضر لى بطانيتين وبرشا من الليف ، حملتهم على ظهرى ومشيت وراء السجان .

مشيت في وسط خلق كثيرين من المساجين ، خارجين من الأبواب في صف الزنازين الأرضية . اتجهت الى السلم . أرقى الدرج ، يرهقني حملي ، كلما وصلت الى دور وجدت الناس خارج الغرف متجمعين في الشرف . الثاني والثالث ، حتى وصــلت الى الدور الـــرابع . وفرحت برؤية زملائي . ألقيت بحملي عـــلى الأرض وألقيت بنفسي عليهم . سلموا على وعانقوني . هـــم مجروحون يلتمسون في عناقي جبرا لكسورهم . وأنا قادم بوعثاء رحلتي أنشد عناقهم بعض الســلامة من تعبي . ثم جلسنا ننتظر لشيء بيننا لا نراه ، لكنه قائم لا يطوله لمسنا .

● طبيب السجن :

كنت في انتظار طبيب السجن ليقرر بشأني ما ينبغي عليه اتخاذه . قلق في انتظاره . مرتكن على سور الشرفة أمام الزنازين . خلفي بعض من زملائي كل في شأنه ، أتأمل الهوة السحيقة حتى الدور الأرضي، ثم أصعد حتى مكاني ، أتفكر فيما يقولونه عن بشاعة الطبيب المنوط . أنصت لسجين صعيدي تهب على رائحة عرقه ووساخة جسده ووسخ خلقانه . أتأمل القمل كل واحدة مغروسة برأسها في جلده .

أشرد ، ثم أفيق على حديث السجين الصعيدي . لست أدري لماذا اصطفاني لصداقته ، وأنا صبور عليه ، أسمعه ولا أجيبه ولا أرد عليه ، فهو لا يسمع ، انه أصم تماما . انتابه خرق في طبلتي أذنيه ، ويضغط على

عصب السمع ضجة مهولة . طبول ترن فيه ليل نهار .
ألهـذا غفل عن القمـل يرعى في جسـده ، أتأملها وأرثى له .

يحدثني انه يحتاج الى جراحة في أذنيه ، والطبيب يحتاج الى رشوة كبيرة ، من أين له بالمبلغ الكبير ، حتى يحوله الى مستشفى أسيوط . ثم أشار لى ، ها هـو ذا الطبيب . التفت فاذا بأفندى قميء ، أكرش ، أصلع، منتفخ الوجه ، زائغ العينين ، يتلفت تلفت لص وهـو يبدو أبلها مخبـوطا ، يمشى أمـام أبواب الزنازين ، وحوله المساجين يلحون عليه وهو غارق فى حاله ، يمشى لا يلتفت .

يمشى يخب حتى يصادفه مسجون يسد عليه طريقه وفى يده سيجارة ، يقدمها للطبيب . ينظر فى علامتها، ثم يخرج العلبة المناسبة لها من جيبه ، ويدس السيجارة فيها . ثم يلتفت خلفه الى الممرض ، طويل قذر الثياب فى يده علبة معدنية لامعة ، وفى يده الأخـرى حافظـة فيها أوراق . التفت له الطبيب فأخرج من علبتـه قرصـين من الاسبرين وأعطاهما للرجـل صـاحب السيجارة ، حتى أدركنى الأفندى وتابعه الرث .

التف حول الطبيب زملائى ، كل له شكاية أو مطلوب من الأدوية ، وكل يود أن يطيل اقامتـه فى سـجن أسيوط ، اذن فهو يلبى كل مطلوبه وأنا واقف متردد

فى ان أفتح معه موصوعى وهو لا يلتفت ناحيتى أبدا ٠ قال : « أين السجائر ؟ » فخرجت العلب من الجيوب وتواترت عليه العزائم بسيجارة واثنين وثلاثة ٠ أخرج من جيبه علبا تختلف علاماتها ، ودس السجائر فى العلب المناسبة ٠ فلما امتلأت خمس علب نادى على الممرض وقال له : « خذ ٠٠ ! هذه خمس علب ، خذها وأعطنى ستين قرشا ٠٠ ! » أخذهم الممرض ووضعهم فى جيبه وقال له أنا حاضر ٠

فجأة التفت لى وحدجنى بنظرة من عينيه قال لى : « جئت تنشد الطراوة ٠٠ ؟ أليس كذلك ؟ » شدهت وصمت وتطوع زميل لى بشرح موقفي له ٠ والرجل بقى يتأملنى وأنا صامت ٠ هل يزن ما أملك وما أستطيع أن أهبه له ٠ ربما ٠ انه فى الآخر قال : « حينما يخلو سرير فى مستشفى السجن أحولك عليه ، ستبقى فى مستشفانا حتى يطلبونك فى الميرى ، اذن تروح الى هناك يجرون لك العملية ٠٠ طيب ياسيدى ٠٠ ! » ٠

وانصرف يلحقه مساعده ، وأنا بقيت أنظر فى أعقابه ٠ حتى أفقت على الحاج السجين الصعيدى ٠ يتكلم وأنا لا أدرك مما يقول شيئا ٠ شارد ٠ أفكر فى صعيد مصر ٠ سقطت الأسطورة عنه وبقى عار مثل سمكة مملحة ٠ يكلمنى السجين الصعيدى ، ومن ناحيته

تهب عـلى ريح نتنة ، قال لى : « ألا تكلم الطبيب حتى يحولنى لكى أجرى الجراحة ؟ » أغمضت عينى ورفعت قبضتى فى وجهه كأنما أصرخ وقلت هامسا : « اننى لا أعرف هذا الطبيب ، ولا أعرف له مثيلا فى الأطباء أبدا .. ! » .

● فى مستشفى السجن :

جاء سجان يأخذنى الى مستشفى السجن • ابتسمت لزملائى وأشيائى فى يدى ومشيت • وكالعـادة تعلق بصرى بظهر السجان وهو يمشى يتخلع يسد عـلى أفق الرؤية • خرجنا من باب العنبر ، وعبرنا اجراء القيد فى دفتر الحضـور والانصراف • ثم مشيت فى فنـاء السجن • ناس كثيرون ذاهبون وآتون صخابون وأنا من دونهم أبحث عن المبنى الذى نقصـده • وقد كان ، المستشفى قائما فى أقصى الفنـاء • وكان على أجـوز اجراء القيد فى الدفتر • ثم جلست على سريرى محتارا مترددا فى قاعة كبيرة بهـا صـفان من الأسرة لصـق الحائطين ، يخليان ممرا يشغله المرض ومساعدوه من المساجين حتى ألفت فتمددت •

سريرى قبالة سريره · تعرفت عليه · قربنــا من بعضنا الصمت والملالة وسكون ورصانة في طبعه · انه مكسور ظهره ، فلف جسده بالجبس فلا يستطيع حراكا · مشي ليمه ، أجلس على حافة سريره ، يبتسم لى مرحبا · انه رجل وسيم ، والنبالة في جبينه وعينيــه وشــفتيه حينما يتكلم أو يبسم · أنصت وأغرق فى الراحة من حديثه والرطانة الصعيدية · بلدته في الصعيد لها اسم بلدى في وجه بحرى · ·يا سلام ·· والناس هنــاك لهم شئون آخرى ·

فاذا بهم يهلون · أقاربه جاءوا لزيارته ، انسحبت الى مكاني ، وهم رجال كبار ، وجدعان طوال ، أكمامهم واسعة ، وخيزرانات سويسية والشوارب مبرومة ، أما العيال فشواربهم بعد نوايا سمراء أعــلى أفواههــم اصطفوا بسريره ، يتكلمون ويزعقون ويهمسون وهــو صامت ، واثنان من حراس السجن واقفان يرقبان · لما اطمأن بى الحــال طفقت أتأمــل ، حتى ميزت أخاه من بينهم وأباه · هرجوا ومرجوا ، وأطالوا الأحاديث ، ثم قاموا ، همة كبيره ، والخيزرانات فى أيديهم والعمــائم كابسة على الجباه · سلموا بقوة · صافحوا ، ووضعوا أيديهم على صدورهم بعــد كل مصافحة ومشوا وذيــول جــلابيبهم تطير مع الهــواء ثم كبس الصمت على قاعة المستشفى ·

سريرى والسرير الذى قبالتي ، مشيت اليه ، وجلست اليه وعلى وجه صاحبى الكابة • قلت له : « ماذا يا أخي ؟ » قال لى : « انه الثأر يا أخي ! انطلقت رصاصة أودت بحياة عمي ! مازال يرقد ودمه ساخن ! الثأر على اذا خرجت ، وأنا وشيك الخروج ، والا وقع على أخي الذى يصغرني ! » •

وأنا بكيت أخاه الذى يشبه عمي • يا وحدة الملامح، والهموم تختلف •

وجاء الطبيب • مر على المرضى الراقدين في الأسرة ، كلما مر بمريض كلمه أو شتمه • حتى اذا جاء الى رجل يدثر نفسه ، يكشف وجه ضبع بشع • مال عليه الطبيب وجر كرسيا وجلس الى جانب سريره وبدأ يكلمه حديثا هامسا بعد أن صرف الممرض وأتباعه • الآن غرقت القاعة في الصمت ، ليس هناك الا تسمعنا للحديث الذى يجرى • قال الطبيب للمسجون : « ألا تمكنني من ردفك يا ابن القحبة ! » الكلام هامس رقيق ، فرد عليه المسجون : « شقي متاح لك يا وسخ ، الا أن تشق اليتي وتخرج الابرة البلاتين منها •• لا •• » فهمس له الطبيب : « وماذا لو أعطيتك خمسين قرشا في مقابل حصولى على الابرة ؟ » قال له المسجون ، « أريد خمسة جنيهات في مقابل الابرة ! » قال له الطبيب : « سأخدرك وآخذها رغما عنك ؟! » قال له

السجين : « وأنا أصيح واخذ بتلابيبك حتى أفضحك في الدنيا ويأخذوك الى الجحيم ! » .

حل الصمت . قلبى يتقلص أحس بآلام تكبس بمقابض حديدية على صدرى حتى نهض الطبيب من جنب المسجون وهو يقول : « طيب ! » ومشى على أهداب الصمت ووجهه مزرق وعيناه عكرتان مما به من الغضب .

● فى مستشفى أسيوط الأميرى

الصبح فيها شمسه ذهب ، ألواحه مفروشة على أرض الفناء ، وعلى واجهات المبنى . أراه من خلال القضبان ، وشبك السلك على شبابيك غرفتى . غرفة مقصية على جنب الفناء ، معزولة ، مخصوصة للمساجين السياسيين ، وللمجانين ، يبيتون بها ليلة أو ليلتين قبل أن يرسلوا الى القاهرة ، ونحن نبقى بالغرفة ريثما نعالج ثم يعيدونا للسجن كرة أخرى ، نعم .. هكذا .

الصبح ذهب ، كأنما الدنيا مسبوكة من نضار ، تنعم عينى بالألوان ، رغم تعبى من قلة نومى بالليل . فقد سكن جنبى مجنون ظل يخبط ويكركب ويصيح انه ليس مجنونا ، وكنت جمهوره الوحيد ، أغفو ثم أستيقظ على صراخه أفتح عينى على بهاء الدنيا وأرقب مرور

البنات الممرضات لابسات الأبيض ، عذاب مثل عذوبة الصبحية . خذن تعبي من جسمي الى فتوة قدودكن ، في بهاء وجوهكن ، في جرس الضحكات .

وأرقب منهن على وجه الخصوص الصغيرة الوسيمة . عذبة الحديث ، جميلة اليدين ، حينما تحدثني يقوم بيني وبينها نهداها . هي تدل بهما ، الكلمات تصاوير من حركتهما . وأنا غارق في النعمة ، وهي سكرانة نشوى ، تقول لي على خطيبها ، والحديث حنان . اذا ما حرت الشمس انصرفت ، انها لا تأتي لغرفتي ، ليست مخصوصة لخدمتي ، آه لو كانت .

انما تأتي بنت بيضاء نحيلة ، تعبر بالحرس الجالس أمام غرفتي ، تتثنى ، تغنى « البيه .. البيه ، يافندي ! » ثم تغرق في الضحك وتندفع الى غرفتي فأتلقاها في حضني ، ريحها ومذاقها وكيانها الرقيق كلما أوشكت تخلصت مني ، أقف مرتجفا ألهث ، وهي تكركع بالضحك ، تحقنني ، تقيس لي الحرارة ، تعطيني الأدوية ثم تنصرم من غرفتي بذات السرعة التي جاءت بها .. آه ياخلق .. من المتع التي لم تكتمل .

يفجؤني ممرض الغرفة ، تسبقه ابتسامة متزلفة . يقول لي : « كيف حالك يابني ؟ » يحدثني كأنما أنا زوج ابنته ، وابنته وراءه . يتركها لي ، وهي سعيدة باذن

أبيها المضمر ، فتتيح لى نفسها ، وتلبد فى لاهثة مهتاجة · وأنا آخذها من كل سبيل ، أحيطها ، أعصرها، ويداى تتحسسان سمانتها ، يخنقنى ريحها وأتركها تمشى متلفتة تبسم لى :

أشتاق للشاويش العيدروس الذى تبدأ نوبة حراسته في السادسة مساء هو وزميله مسليان جدا ، ويسرنى العيدروس حينما يحدثنى بانطلاق عن أيام ما كان فى الوفد قبل ثورة يوليو · كان زمن اذا الواحد خرج فيه متظاهرا أو يناصر نائبا وقديا ، يرفع يديه مقبوضتين الى أعلى ويقول ·· تحيا مصر ·· المجد لمصر ·· وأنا كنت أرتجف من حديث عيدروس بينما يرقد علينا تراب الصمت ، وقلوبنا تلبص تحت أكوام التراب ·

لكنه الصبح ذهبى الشمس ، وأنا سأجرى جراحة اليوم · أخذونى من غرفتى على العربة النقالة ، يدفعها ممرض طويل يلبس الأبيض وخلفه يمشى اثنان من شرطة الحراسة وأنا مستلقى على ظهرى أفكر فيما سيجرى لى ، وكنت طول السكة ، عبر الفناء حتى المبنى ساكن النفس غير قلق ولا مؤرق ·

أمام المبنى ركنت العربة النقالة وجلس الشرطيان على جدار الشرفة ، نحن الثلاثة يرين علينا الصمت ،

كل آن يخرج واحد من الغرفة على عربته ، منكفىء على وجهه يفيض الدم من فمه · كلهم أجروا جراحة اللوزتين ، وأنا صبرت وسكت على خوفى · بقيت أنظر حتى العصر ، ثم دخلت ، ابتسم لى الطبيب حتى أعطانى حقنة المخدر ·

استيقظت على وجه عيدروس يعانقنى ، يضمنى الى صدره ويقول : « آه يابنى ياحبيبى ·· آه يابنى ! » ومدفعه الرشاش ممددا جنبى على السرير ·

• الرجوع الى السجن

تمددت على سريرى فى مستشفى سجن أسيوط ٠
كلما فتحت فمى بكلمة أو لتنفس تدفق الدم من حلقى٠
بقيت هكذا ، أكتم الدم فى فمى ، لكن دموعى تتدفق٠
المشاهد القديمة ، الأسرة والمرضى والخدم ، ينقصنى
زميلى الذى كان قبالتى ٠ الآن سريره خال ٠ أسأل عن
الرجل ؟! خرج ! آه ٠٠ أتراه الآن يدبر مقتلة رهيبة
لقتلة عمه ؟ صمت ، ربما أجىء الى هنا مرة أخرى ،
فى مرض آخر ، وأصادفه ؟ لا ٠٠ يا ربى ٠٠ وددت
أنه لن يحدث هذا ٠

وينقصنى أن أرى الطبيب وتابعه السرث ؟ جئت
بالأمس مساء فلابد أن أراه صبح اليوم ! يأتى ويجلس
جنب الولد الذى خبأ ابرة البلاتين بين فلذات لحمه

ويحتال عليه . أتخيل المناقشات وأبصق الدم في منديلي . تأملت وجوه الناس على الأسرة في قاعة المستشفى الفسيحة . في طرفها القصي يرقد الولد يكنز بين طيات لحمه ، وبعده بسريرين يرقد الرجل الذي يحتضر . قيل لي انه منذ مدة وهو يحتضر . ويقولون انه يخفي مائتين وستين قرشا في حق أولجه من استه الى مصرانه الغليظ . ذلك طبيعي ، وعرفه الطبيب فجاء به من زنزانته الى هنا حتى يموت فيشرحه ويستخرج النقود بنفسه ، هكذا قيل لي .

وقال لي الرجل الذي يخفي البلاتين في ردفه ، يكلمني عبر الأسرة : « انه ينتظر موت الرجل ! » ويشير بيده عبر السريرين الى الرجل الذي يحتضر : « سينهب الرجل ، سينهب ماله الذي دسه ليأمنه ! » قلت له : « أنت تذكره ، فيأتي يتخطى ! » فاذا يأتي الممرض من أول قاعة المستشفى ، يوزع الأقراص والأدوية على المرضى . جاء دور المحتضر . مال عليه الممرض . تفحصه ، ثم تفحصه مرة أخرى ثم يضج بالضحك ويهتف مجنونا : « ان الرجل مات ! الرجل مات ! » ثم وضع الأدوية من يده على المنضدة ، وأسرع ينادي طبيب السجن .

خروجه خلق لحظة صمت سكنت في قاعة المستشفى شاملة كل قلب . انشقت الأرض عن الطبيب .

ينفح تعبه وهـو يكافح بقـدميه ويديه القصيرتين .
وخلفه الممرض واثنان من حراس السجن - كلمهما :
« احملاه من سريره الى الغـرفة ! » ثم كلم الممرض :
« هات عـدة التشريح يا ولد ! » فحمله السجانان
واختفيا به وراء جدار الغرفة وفى أعقابهما الطبيب .
انتقلوا الى خلف جدار الغرفة ، ومعهم مشهد للفرجة ،
وصارت للناس صلة مثيرة سمعية بما يجرى هناك .

قال الممرض للطبيب : « ألا تأخـذ القناع وقفـاز الجراحة ؟! » فرد عليه الطبيب . « دعنى يابن الكلب! ناولنى المقص .. ! » ثم كلم السجانين : «عرياه ..!» ونحن تابعنا من خلف الجدار لهاث الأنفاس وصـوت الحركات المكتومة ، وأنا مرتعب ، أنصت لصوت المقص يقد اللحم وسط الصمت الجاثم عـلى القاعة . وصلتنا نهنهة مكتـومه من الرجـل الذى كان يحتضر ، جلجلت نهنهاته ، لحقها صراخ الممرض وارتطام جسده بالأرض من سقوطه ، واختلاط زعيق الطبيب بزعيقى السجانين . وخرج الطبيب أبيض بياض المـوت ، وفمـه مفغور ، ويداه يتساقط منهما الدم . وأنا سقطت مغشيا على .

فى اليوم التالى حكوا لى أن الرجل لم يكن قد مات، الا بالتشريح ، والممرض أصـابته اليقظة ، وجـدت حارسا من حراس السجن يأتينى وفى يده ورقة ، تصريح خروجى . خرجت فى حراسـة السـجان حتى الدور

الرابع فى العنبر · سلمت على زملائى السجناء السياسيين ، وهم كانوا صامتين من وقع الخبر عليهم · ودعتهم متوجها الى سجنى فى الوادى الجديد ، ولما أسرفت فى الكلام فاض الدم فى منديلى ·

السرى بالليل ٠٠ !

خرجت من قريتى الى شسوع الزمام ، وأخى معى ٠ أمامى لمعة القمر ، يبين بهاؤها على قمم الشجرات ، وعلى الورق فى زمام الزرع ٠ ومن وراء كتلة العمار ، رمادية ، وفى ظهرى دفؤها وفى أنفى بقايا من زخمها ، أمشى فيهـا وفى قلبى ثقلهـا ، يتمدد حتى يأتى على الفراغ ، على المعانى التى أمتعتنى زمانا ، تهت فيها ٠ أتأمل فيافيها دونما تأويل ٠

قلت لأخى : « أتعرف ، انما تكومت قريتنا حيث هى ، وكان الى الغرب منها ، بالميل تجاه الجهة البحرية مقبرتها ٠٠ ! » قال لى أخى : « نعم أعرف هذا يا أخى ٠ ! » قلت له اذن : « ثم زحف العمـار ناحيـة الغرب مائلا تجاه الشمال ، فالتهم المقبرة ٠٠ ! » قال أخى : « نعم

أعرف ذلك ، وانه تخلفت عن المقبرة مقـــام سـيدى سليم ٠٠ ! » قلت له : « ان الاولين من قدامى جدودنا ورءوس أسرتنا هم مثواهم فى هذه المقبرة القديمة ٠!» قال اخى : « ذلك عزاؤنا ٠٠ ويقال ان سيدى سليم هو جدنا الاعلى ٠٠ ! » قلت له : « لما رأى أهل ذلك الزمان زحف الخلق عــلى ساحة الموت يبنــون فيهــا ويعمرون صمتها بالحس والنفس والغنــاء للشــيخ فى المواسم ، ابتنوا مقبره فى الشرق الى الجهه القبليه ٠٠ ! » قال أخى : « ان جدنا الأقرب كان يود موتاه هناك بالطرائف من كل موســم ٠٠ ! » قلت له : « انا لم نر ذلك أبدا انما سمعنا به ، اذا حكى لى أبى أن لأبيه أختا فى هذه المقبرة يقعد قدام قبرها ويدللها بالأسماء ، وأنا والله أحببت ذلك الجد من حكاية أبى عنه ٠٠ ! »

قال أخى : « درست هذه المقبرة وتخلف عنها مسجد سيدى سعد ، والله هذا وسيدى سليم ، هذان الضريحان هما زينة العمار ٠٠ ! »

قلت له : « آه ٠٠ آه يا أخى ٠٠ انهم فى الــزمن الأقرب اليـنـــا أنشــأوا مقبرة ثالثــة موغلة فى الأفق البحرى لا يطولها الشوف ٠٠ آه يا أخى كان بينى وبين المقبرة طريق ، أبد من الخوف ، سكة تمشى فى الخلاء حتى المقبرة ٠٠ الآن على جانبى الســكة بيوت معمورة حتى رسى حائط البيت لصق حائط القبر ٠٠ »

قال أخي : « ازدحمت الحياة بالأحياء ·· ! »

قلت له : « وما عاد في القلب فراغ ، ولا معان غير مؤولة ·· ! » ·

يطهرني ندى الليل وطيب ريحه ، أمشي فيه أهرب بوجهي الى برودة مكنونة تتسرب لي وبها ترتجف أستار العتامة الفضية ، وتطير بنات الهواء من الطيور الليلية من البومات والخفافيش والفراش والجراد والنطاط . يطرن ، ينشنني في وجنتي وعلى جلد وجهي ، يدغدغنني فأضحك ، فرحان بالبومة · وجهها ابن أخت وجه القمر مرسوم العينين والابتســامة مخيفة تحت قوس الأنف ، والخفافيش هي فيران رقيقة هشة العظام تصر في أذني اذا طارت محلقة ، والفراش والجــراد لا يفتك الليله بالزرع ، والبومة تعفي الجرذان من صيدها والطيــور بنت النهار التي أوت الى أعشاشها تنظر الى السلام الليلي وتستعجب ، عيناي تنعمان بالمرائي القمرية ·

اذ يتلعب اللجين على وجه الماء ، يتزين هنا بغمازات ذهبية ، ويستضيء صدور النواهد ، وتكسر تحتها ظلالا سحما · هو فردوس الغبش ، يميل المنظور على « الله ·· الله ·· » ترتلها كل آن النسائم رخية رواحة ، يختلج الضوء والظل بأشكال الفروع ، وقلبي شهيد ، وهمس الذاكرين · رنقت مفتونا ببسـتان النـور والحلكة · تنزهت :

تطمئن قدماى بالدوس على رطوبه الترى ، كما لو كنت أدوس !؟ ولا أظلع ولا تبهظنى يدى · ان كانت ذبلت وعلقت بكتفى ، ميتا وتحيا الاخرى بالحركات ، ويرين الصمت على نصفى اليمين · ويخف عنى عبء يدى اذا ما شبكتها مع الأخرى وأرحتهما على حجم بطنى · وتستريح ساقى بطول الأخرى ، وارتاح فى متكئى ، وأبتسم ، وجهى مكسور باغماض عينى اليمنى ، أشتاق للتفرج على المجالى القمرية ، من مستراحى ، من محفتى يهدهدنى ترجيع الذاكرين ، وميد أكتافهم بلين الخطى ، فلا يلحقنى العنت ، فكأنما أدوس ، الأرض رطبــــة ، والرطوبة تلحق باطن قدمى ·· فلا تبهظنى نزهتى ، أنظر ، تربت عيناى على الأشــياء دون تاريق البهــاء البدرانى ، ومن اجتمــاع حس البصر والســمع ومن ارهاف جملة العصب تتــولد البصــيرة ، تتبع خيــوط الضوء الحريرية الفضية حيث تنسج قبايا وقبابا وتتدلى الشراسف ويدع الزينة ، وهنا وهاهنا ، ويطوى فضل القماش الجميــل · أكل ذلك القــز نفث القمــر ؟ أم الحيوانات الرابضة فى الجحور ، أراها · بريق عيونها وأسمع ترداد تنفسها ·

الذئاب على حدود دائرة وجودى ، تنبعج بسرائى ، وتلتئم بتريثى ، ويأتينى العواء من المحيط مختلطا بنبح صــدور ماكينــة الطحين ، دمثته المســافة والنســائم

وشخصتها في الأوراق ، وهدأ من الصوت ضوء القمر .
وضحكت ، قلت لأخي : « اني اضحك على التحدير الذي وقيت به صغيرا : أن أميز بين الكلب والدئب ، هدا مدلى الهامة ، محني الذيل .. ! » ضحك أخي لضحكي وقال.
« وامنا اوصتتنا بأن لا نمر من الدئب ، بل نمشي في طريقنا ثابتي الخطو ، ثابتي النظرة ، تلك نجاتنا .. !»
قلت لأخي : « أنضحك لذكر امنا وابينا ؟ أم هما في الدار وخرجنا عنهما لنزهتنا المسائية ؟ أم هما خلف الأفق ونتعب بالتحديق فيه ؟ » قال أخي : « هما بالخيال .. كانا بالخيال ، وهما حيثما كانا انما بالخيال .. يستوى الأمر يا أخي .. ! » ضحكت وقلت له : « آه .. نعم .. لكنني سالم في سراى الليلى ، فكلهم كلابي هذا المساء .. ! » الذئاب والثعالب والتيفان والقطاط البرية والجرذان والحرباءات . يا لهذه .. ؟ انها تخضر اذا ربضت على شجرة في صميم اخضرارها ، ثم تستحيل الى لون الثرى على الأرض . أهي الآن أيان ما كانت في الدائرة حولي تبرق بلون الفضة ؟ ثم أخذني الثقل في صميم قلبي . قلت لأخي : « لكن الثعابين يا أخي .. ! » فقال أخي : « انها تقوم بقاماتها على ذيولها وتفح .. ! » تمشي الرعدة في بدني . قلت لأخي : « أتصور آن لها ذراعان مستوفزان ، وقدمان مغروستان في الأرض راسخان ، وتفح .. ! » قال أخي وقد مشت الرعدة في صوته : « لها لسان كالسوط

يضرب ، وتضرب برءوسها غاية المفاجاة ، تخطف عصافير السمار ، ينكتم صئيها ، وتنبتر الرغبة قبل لفظ الجثة ·· ! » قلت مذعورا : « لا ·· لا ·· ليس في مسائي هذا !! » والثمانين هذا المساء طيبة · تتمدد في القمر ، والنور ينزلق على ملوسة جلدها تستصفي عيونها جوهر الضوء في ماسات تخلع قلبي المشبع بحكايات كنوز سندباد · باهرة · يا للألق، والضفدعات ينقن لا تبالي ان زاحمت حتى السحالى ، انزاحت ، وهي تنزاح لها كيما تواصل النق · والجنادب يرهقن القوس – من مناشير رجلها – على رصفة جناحها ، تصر وبنات الأرض من دود وأم أربعة وأربعين وكلاب البحر وغير ذلك ، كلهن يجاوبن حدو الضفادع بالحداء ، ويتقبب الأفق من عمق الترديد ، وتصلصل خبطات الذاكرين ، تحملني ، يرجحنني ، وأنا مرتاح ، وأميل كلما جاءني صوت ماكينة الطحين ، صفيرها ونبح دولابها ، يجيئني على غير مفاجئة انما هو مرتبط أوثق رباط – رطم عددها الجنازير والتروس وضمضمة الحجر – مرتبط أوثق رباط بنبض قلبي ·

قلت لأخي : « كنت يا أخي أذهب بأختي لحد هناك بطحيننا الى ماكينة الطحين ، أركب جسم الماكينة ، ترتجف وترجفني حتى أدوخ ، والسخونة السائدة في الغرفة ، والزن يصم آذاننا · أرى أختي والدقيق على

ملامحها وشعرها من عابق ابيض » قال اخي : « كنت اراكما أيبان بالطحين وعليكما وعثاء السكه وجهد العمل ·· ! » قلت له : « كنا ننفض ، نتراءى حيرتنا ، والذهول ، الأشياء ابيضت من النثار الطائر · مشيت اترنح حتى القادوس ، أمسكت حافته · نظرت· الحبات يتساقطن على الدوران الساحق لحجر الطاحون ، له زئير يرج الغرفة ، يرجني حتى القلب· وتلك فلسفة الطحن ، تنسحق الجثة في ضجة عديمة المثال ، ويطير بعضها يركد على أيدينا والوجوه · ثم نئوب بالتعب وبالحزن انا وأختى ، ثم ان قلبي في قبضة الماكينة مايزال !! » وقال أخي : « نعم ·· ماكينة الطحين » ونظرت ناحيتها وتاف بصري عنها · تجاوزتها ، وتجاوزت الآفق الى غيبة في التذكر ، حدود يقصر عنها الضوء ، آتحسس جسوم التخيلات في الظلام ، وأشاور ما يحضرني من أخبار حفظتها من ذكرى للأقدمين · عن ترب هي أكوام من الهدائم ، لا يقوم لها أكتاف وتنبقر البطون ، والضباع وطول عوائها ، لها يدان حفار تان عارمتان ، وتنهش · هتفت بأخي : « يا ربي ·· انا طهرنا الأرض من الخرافة ، وبقيت هذه تعمر أجزاء من الخيال ·· ! » قال لي : « وما ذاك يا أخي ؟ » قلت له : « الضبعة تفتك بالموتى في القبور ·· ! » قال أخي : « يا لهفي على الخيال ، من دوسه بثقال أقدام الحقائق ·· ! » ضحكت على أخي وقلت له : « انا كنا ارتحلنا كل مساء صوب

الخرافة ، أليس كذلك ؟ » قال لى : « وأنا امشى على اثارها اتدركها يا أخي ؟ » ضحكت له وقلت : « ليبق لؤلؤ القمر ، وتتأبد اللمعة الفضية ! » وترجيح الآفاق للاصوات وتهدج بحات الذاكرين ، يعجلون السير بى ، أتراهم يتجاوزون المضيء الى ما خلف الضوء ؟ ناديت : « رفيقى في سراى بالليل ٠٠ ! » تحسست بيدى عشواء من مرقدى العالى ، صادفت كتفه ٠ رفع الى وجهه فى وسامة وميسم الرجولة ، ومتحسب خجول رد علي وقال : « نعم يا أخى ٠٠ ! أنا هنا معك ٠٠ ! » قلت له : «أليس القمر بعد لنا ٠٠ ؟ ولألاؤه ؟ وصدر المساء نشنق فيه بمحاريث الأحاديث العذاب ؟ أليس كذلك يا أخي ؟ وحسان الكلم ٠٠؟» قال لي : « نعم ، الأمر كان هكذا ٠ !» قلت له : « وكانت رفقتك لى متعة من المتع ٠٠ ! » قال لى : « وسائر الاخوان من الأقارب والأصحاب والمعارف ٠ المعجبون بك ٠٠ ! » قلت له « خرجت بك الى المساء ٠٠ ! » قال لى : « خرجت معك ومعك جميع الناس الذين عيونهم عليك ٠٠ وهكذا كان موكبا حافلا ٠ ! »

يمشى بى حملة محفتى ، يدرجون ، يحممنى القمر ، أحس برذاذه فوق جلدى وتحت ملابسى ٠ ويلطسنى الهواء فأضحك أغرق فيالضحك حتى أدمع ٠ من امتزاج الضحك بدموعى انفتلت حكاياتى ٠ أحدثه بأحاديثى القديمة ، أتحدث بكل العنفوان فيما كان فى شبابى ٠

وهو أبيض قوداه وعلى وجهه الحزن قلت له : « ابعد
ما تروقك حكاياتي عن البنات ٠٠ ؟ » قال لي : « كانت
راقتني زمانا ٠٠ ! » قلت له : « اذ ينطلق القطار في
الأثير ، يشف الفضاء عن اللون ، وهي قدامي ، انفح
في نارها والعب تلاعيب الساحر حتى تدوب ٠ ينبنج
قدها مغمضة مفترة وينهض صدرها ٠ الكبرياء والأبهة ٠
الرسالة لي ٠ الاثنان ساعيان لي ، وانا قادم من اخر
سفرة الشوق ٠٠ ! » قال لي أخي : « وبعد ذهبت في
الكتب ٠٠ قطرة حبر وبياض القرطاس ، ثم كانت
البنت سحرا ٠٠ ! » قلت له : « اذا ما حدثتني عن
الرجوع من المساء ٠ ليلتها كنت هنا ، وكان القمر
غاب ، ونورت النجوم ، يمضين يفتشن عن جدع وبنت
يتواريان في الظلال بلواعج السطم وحار العناق ٠
رجعت من المساء نورت في عينيك نجمتان ، وأنا هنا
على وجناتي شحوب المصباح ، وهي تاخذك الى مجاليها
ـ تحكي لي ـ اذا انبهرت أخذتك قسرا الى ما يبهرك
أكثر ٠ تهصرك اليها ٠ تتحسس وجهك والعضل
والأعضاء ، تغرق في حليب فمها مرغ دافيء ٠ تصرخ
بك أن الرجال سكر ٠٠ وتشرب من مشاريبك ٠٠ ! »
قال لي أخي : « انهن ذهبن البنات ٠ انطفأن ٠ مضين
برغبتي في النعمة بالنعومة ، بالوجنات والعيون والثغور
قلت له : « أما بعد فما تفتنك حكاياتي عن أبينا ٠٠؟ »
قال لي : « لقد مات أبونا وأخذ شوقنا لعناقه معه ٠٠ ! »

قلت : : « لقد مات وترك في عيوننا نظرات التيه تجاوز تخوم المرثي ٠٠!» قال : « وبقي لنا حارق التحنان٠!» قلت : « واذا تفلسفت أركب الكلمة على الكلمة واشقق بطون المعاني لأخرج الحكمة من المعنى ٠٠ ! » قال : « وأنا أسالك متى الثمرة تسقط من علياء الفرع تندثر في الرغام ٠٠ ؟ » قلت : « أخ ٠٠ ! » قال : « وهى حافلة بالبهاء والزينة ٠٠ ؟ » قلت : « انهـا تضربهـا الآفة ٠٠ ؟ » قال : « من رونقها لا أرى ما يعيبها ٠٠؟» قلت : « انك ترى الآفة في جسمى ٠٠؟» قال لى : «نعم ٠٠ نعم ٠٠! » قلت : « انها لا تضير بى ٠٠؟ » قال : « أنت حافل بالبهاء والزينة ٠٠ ! » قلت له : « آه ٠٠ آه ٠٠ !! » نظرت للقمر وتأملته وأحببته مزجج الحواجب مكحولى العينين مرسوم الشفتين ٠ مولع به ، مشـدود اليه ٠ تنشطنى المسرة ٠ يأتينى الضحك ويروى أبدا من الحزن ٠ من ابتسـامك يا قمـر ٠ أكركع في وجهك وتورق أكمام النوايا البهيجة ٠ وواصـلت حديثى مع أخى ٠

قلت له : « وبعد كنا عيـالا شـبانا ٠٠ ! » قال : « والآن هرمنا يا أخى ٠٠ ! » قلت له : « والبـدر فى اكتمال شبابه ٠٠ ! » قال : « اسأل مشيميك ، واسألنى، لم يكتمل القمر بدرا على أبهى منك ٠٠ اسأل الذاكرين المرتلين ٠٠ ؟ » خبطت النعش بيسارى ويمناى راقدة

ساكنة فى جنبى · تتقلب الأحوال على ملامح وجهى ، أما وجه القمر فخالد الابتسام · ميزت وجوه النـاس الذين جاءوا يشيعوننى · قلت لأخى : « غابت خواطرى بحلو المسامرة ·· أخ ·· الآن ·· سقوط البهاء ؟ » قال لى : « ما أفجعها فى كل مرة ·· ويالانفطار القلب عليك ·· ! » ·

ميزت خطـو الذاكرين وترتيلهـم · قلت لأخى : « ما الذى يقرءون فى جنازتى ·· ؟ » قال : « دلائل الخيرات وبردة الأباصيرى ·· ! » قلت له : « كنت أفضل شيئا أكثر مرحا ، أكثر رفقا بحالتى المزاجية ·· ! » قال لى : « من عليـك الدراويش بالقـراءة اكـراما لوالدنا ·· ! » قلت له : « رحم الله أبانا ·· ! لقـد خصنا بالقراءة ·· ! » قال : « نعم ·· نعـم ·· ! » قلت له : « تذكر اذا كنا نخرج لمسائنا كنا نولى وجهنـا للناحية القبلية ، ونخلى النسائم البحرية فى ظهورنا ·· الآن يسرع حملة نعش فى اتجاه المقبرة ·· ! » قال لى أخـى : « المقبرة حيث وليت وجهـك ، ان قامت أو درست » قلت له : « ان أبانا اذ أصابه الذهول فى آخر أيامه كان يمشى ميمما شطر الجنوب ·· ! وهو اذن كان يمر بمقبرة القرية التى درست فى الرواح والاياب· ! » قال أخى : « نعم ·· نعم ·· ! » قلت له : « انى أتلقى من يم المقبرة الريح بردا وسـلاما على وجهى ·· ! »

قال أخي : « انها بعثة مبروكة ·· ! » قلت : « اذن ·· تكون البداية بالموت ؟ أم بالولادة ·· ؟ » قال : « انك تسأل وتستعصي الاجابات ·· ! » قلت : « اذن ·· خلي الذاكرين حملة نعشي ومشيعي جنــازتي يتمهلون ·· رفقا بي ·· خلوني أتأمل القمر ·· ! » قال : « انهم محبوك، وطائعوك، والمباهون بك ·· أنظر ·· انهم جمع احتشدوا من أجلك ·· ! » قلت : « آه ·· يا فرحي بهم ·· وفي آخر جمعهم تكون حشود النساء ·· ! » قال : « نعم ·· نعم ·· انهن هناك ·· ! » قلت : « وهــذه عمتي من بينهن ·· ؟ » قال : « انها أهلكت نفسها بكاء عليك ·· ! » قلت : « انها المرآة ·· وفيها شيء من أبي ·· دومي يا عمتي كالقمــر ·· أغــربي واشرقي في مأتمنا ·· شجي صــدرك عــلي ·· أنا مرتاح لصــوات الاناث في أعقابي ·· في أعقاب جنازتي ·· ! » ·

زحفت نحو الغيبة، بعدما بدأ يأفل القمر، وينكسف لألاؤه ، وتنمحي حــدود الشجرات والزرع ، وبنــات الهــواء ، وبنــات الأرض ، يركن الى قرار صــامت ، ويسكت الترتيل ، وينقطع حفيف خطو الذاكرين ، وأنا على حدود الضوء ، التفت الى أخي كلمته قلت له : « هل تتذكرني بعد اذا رحلت ؟ » قال : « يذكرك أحيــا ·· والموت غير ذلك » · قلت : « هــل تودني بالزيارة كل آن ·· ؟ » قال : « في المواسم، بخير ما في كل موسم ··

أودك يا أخى » قلت له : « أنت جميل يا أخى ٠٠ ! »
وصفرت ماكينةالطحين على حافة المرئيات، بذلك كبست على الظلمة ٠ وانطلق عـواء الضبعة ٠ قلت فى نفسى لنفسى : « هكذا طهـرنا الأرض من الخـرافة ، وبقيت هذه تعمر صحائفنا والكتب ٠٠ ! »

القاهرة ٨٩/٩/٧

جدل الحياة والموت ... !

● الرعب :

سحبته من ذراعه سحبا عنيفا . هى سيدة طويلة وعارمة ، وبعد لم يمض على زواجهما أسبوعان ، وقد جرب فى عشرتها سطوة النساء على الرجال ، تلقفته فى أحضانها من على البـــاب اذا جاء فى أجازة من خدمتـــه العســكرية ، تأخذه لنفســها ، تهصره هصرا حتى اذا أخذها اللغب نفست تعبها لهاثا قريرا . ثم تطل عليه بعينيها العسليتين وجدائلها محلولة مدلاة . تتنهد :

ـ آه يا حبيبى ! متى تنتهى مدة خدمتك ؟

وهو ندى الجبين ، غاسق العينين ارهاقا .

قامت . من رقوده يلمح قدميها الحافيتين وسـاقيها الناصعتين فيما تدب على البساط ، قالت له :

ـ قم حبيبى والا فاتتنا زيارة عمتى العزيزة !

تفكر في هذه العمة العزيزة ، انهـا أهلكت ثلاثة أزواج قبل أن تسقط مريضة •

قال مجيبا زوجته :

ـ حاضر •• !

وقام • خرجا • مشت تسـحبه من ذراعه سـحبا عنيفا •

مالا في طريقهما على دار حميه • نادت على أخيها، وأخـذاه معهما • انه شـاب رقيق ، يحب أن يجـاذبه الحديث ، لكن أخته مندفعة بلا هوادة • عرجا على دار أختها ، رحبت بهم وزوجهـا • هو أشـد منه في بسطه الجسم ، وزوجته أدق حجما من أختها ، هل يكون هـذا حسنا ؟

قالت :

ـ ان عمتي في غرفة الانعاش •• !

أنصت الأربعة واجمين ، • فواصلت :

ـ يجب أن نعجل بالذهاب ، ونقف جنبها •• !

ثم نهضت شـامخة ، ونهض الجميع • تقـدمتهم خارجة • هو تلفت حتي وجد عديله بجـواره • تعلق بذراعه وهمس له :

ـ ان هذه العمة لم تقل بحقى كلمة واحدة منصفة أبدا ٠٠ !

تطلع اليه عديله بحنان ، ربت على ساعده ، وخفا ليلحقا بالجمع ٠

تحلقوا فى المستشفى قدام الطرقة ٠ جاءت الممرضة، وقالت أن ادخلوا واحدا واحدا ، فتقدمت زوجته لتكون هى الأولى ٠ وهو تأخر خطوة حتى ارتكن عـــلى الحائط ، وغاب عنه الحـــديث الهـــامس حتى رجعت ، ودخلت أختها ، ثم زوجها ، ثم أخوها ، ولما رجع نظروا له فدخل ٠

رائحة الغرفة بشعة ٠ داخ ٠ تسند حتى لمس سياج السرير ٠ هو هو وجه العمة ، فقط ازداد شرا ، وابنتها الى جوارها ، شاحبة مثل أمها ، ومثلها بشاعة ٠

اســتدار وخرج ٠ وجـــدهم ملتمين عـــلى مشـــورة زوجته ٠ قالت لهم :

ـ انها فى حاجة عاجلة لنقل الدم !

وشمرت كمهـــا عن ذراعهـــا ٠ وتقدمت الجميع ، تمشى بهم ناحية المعمل ٠ اصطفوا على الأريكة جالسين ، كلهم الخمسة صامتون ٠ وفى مقابلتهم الأمينة مرهقة زهقانة ٠ قالت : لنر دم من منكم يوافقها ٠٠ !

وضمت زوجته ذراعها ممتلئا أبيض شـــاهقا عـــلى

الطاولة أمام الأمينة · وجل من شكة الابرة الوشيكة ، صرف نظره الى السحب عبر النافذة ، يتأمل فعل الوقت بالضوء · يشحب مع الزوال ·

وأفاق عليهم ، الأربعة ، كلهم مكشوفى السواعد ، يبدون كاسفين · كان عليه أن يمد ذراعه ، وأن يغمض ، وأن يصبر على الألم · وجاء دمه موافقا للعجوز · اذن ، فقد أعطاها ، وقام دائخا · هـل يبقى فيـه من الدم ما يقيم قامته ؟ سحبته زوجته من ذراعه سحبا عنيفا ، وهو يمشي وراءها متخبطا ·

أويا الى فراشهما · عيناه بقيتا غاسقتين · ملامح وجهها بانت له حلمية ، وهي تنهش فيه نهشـا ، حتى يئست منه فأغرقت في النوم · وهو بقى يقظان ، حتى آن الأوان فقام · التفت · امرأته وسـيمة ، ناصـعة الرقبة ، كاملة الكتف · حينذاك ، أغلق الباب وراءه ·

ملأ (أورنيك) العيادة · دخـل للطبيب ومعـه التحاليل اللازمة · قلب الطبيب العميد في الأوراق · تمهل فى فحصها ، ثم أغرق فى التأمل ، ثم رفع رأسه وقال له :.

ـ يابنى ، ·· أنت مصـاب بحالة متقدمة من فقر الدم ·· !!

وقـد غابت المرئيات عن عينيـه ، محتجبـة خلف دوائر سوداء ·

عمتى الحبيبة :

كنت لما أسافر لقريتى أودعمتى بزيارة لها ، نقعد قدام بابها فى الشمس وفى عيوننا دوارنا ، هنا الذى بناه جدنا ليكون بيت أفراحنا ومآتمنا . تصنع لى القهوة ، أحسوها وأستمتع بها على حلو حديثها وطرفها التى لا آخر لها .

انها سيدة مات عنها زوجها ، وترك لها ولدين . وبنات ، زوجت البنات وعمر الصبيان البيت بالأولاد . وهى نعم الأم ، وهى نعم الحماة ، تبر بالبنات وتعدل بين الكفات ، فما أطول النهار ، مشغولة بالأحفاد ، وللعيال رجيز وهرج ومرج ، يكلفها طاقة من نفسها وقلبها وعقلها ، تصابر اليوم بالنظر الى بناية الدوار وجمال معماره ، حتى تأوى الى فراشها ، تأوى اليه وحيدة .

فاذا ما رأتني قادما استبشرت ، تريد أن تثرثر لى عن الدنيا ، لكنها حذرة مني ، حذر المرأة من الرجل ، وحذر الريفى من ابن المدينة ، تأملت عمتي ، أرى في وجهها الشيخ الهرم فتاة صغيرة ، وأنا طفل صغير فى يوم فرحها ، وهى فرحة بزوجها . زفت اليه فى داره في قاع الزقاق . كان رجلا ذا دأب ، ولكن كانت فيه بعض الخماقة . صبرت العمة على حمقه ، ودعمت دأبه بجلدها . وأنجبت له العيال ، مات منهم من مات ، وضاعت من نفسها بعض منها وراء عيالها في القبر . والذين بقوا خدمتهم ، أفنت شبابها حتي ابتنوا دارا جديدة واشتروا أرضا جديدة .

الآن كبر العيال وقرت عينها وتحلم بميتة تليق بها وعيناها على الدوار الذى بناه أبوها بيتا للأفراح وللمعازى . تحكى لى عن وقائع طريفة بينها وبين بنيها . حكت لى عن ابنها الأكبر :

ــ . . فقد ساقنى دلالى عليه أن أسأله ، ماذا انت فاعل بى اذا مت يابنى ؟ هل تقيم على مندبة ؟ وتقيم لى في دوارنا مأتما ، هل تعمر الدوار فى ليلتى بالقرآن من صييت مسموع ، والرجال سكرانون بالقراءة وأنت وأخوك في الجلاليب الكبيرة تمضون بين المعزين تحيونهم بما قاموا بالواجب . هل تفعل ذلك من أجلى يابني ؟ وانى لأعجب من الذى ذكرنى بالموت ؟ وسؤال

ابني عن هذا ؟ ربما لم يرقه سؤالي فقد قال لي من فوره :

ـ يا أمي ما المعزى للمرأة ؟ أيأخذ الرجل جلبابه عليه ويلف شاله على تقيته، ويأتي من أقصى البلد ويترك سهرته أمام المرناة في امرأة ؟ عزيزة على أهلها ، لكنها في البلد لا جاءت ولا راحت ، أنظري ياأمي ماذا صنعنا يوم امرأة خالي، نورنا الدوار بالكهرباء وقرأ المقرىء ، ووقفنا وعلب السجائر في أيدينا والأباريق ملآنة بالقهوة ولا نجد من نعزم عليه ، هكذا كان مأتمنا خلوا من المعزين ، وضاع مسأؤنا هباء ونحن وقوف مدلاة أكمامنا ! والله يا أمي إن مت ما أنا مقيم لك معزى !

وضحكت عند هذا الحد من الحكاية !

وكانت تنتظر مني أن أضحك ، لكنني جمدت • غرقت في صمت عميق ووجهي عليه كآبة القهر •

كلما سافرت لقريتي مررت بها ، فتحكي لي بعضا من نفسها وتكركع بالضحك ، وأنا أضحك معها ولكنني هذه المرة جمدت وبان القهر على وجهي ، مات ضحكها رويدا رويدا حتي انكشف ضحكها من صمتنا ، صمت بيننا ترقرقت في عينيها دمعتان •

● طريق الموتى :

انطلقت بنا الحافلة على الطريق الزراعى الذى يربط الاسكندرية بالقاهرة ربطا وثابا خفاقا مروع الضجيج ، ناشرا الرعب فى قلوب القرى على جانبى السكة المرصوفة · والسيارة تنطلق على حافة الخطر ، وقلبى يسبح بالذى يبقيه على حجة الأمان · يا ربى··؟

أنت اذا أردت ، طاشت العربة فى حفرة الهلاك ! آه يا ربى ·· ! وأغمضت عينى عن النظر فى المشاهد التى تترى خارج النافذة ، تسلبنى وتدوخنى · الناس مشحونون فى العربة على غير راحتهم ، كل يناضل كيما يستريح ، وفى ذلك يميل على زميله ، فيتأوه هذا ويضج ويشكو · كل الطريق ضجيج وشكوى ، حتى يذكرهم أحدهم أنهم كلهم فى كف الخطر · لا حول ولا قوة الا بالله · فيجلب الرجل الخوف من الخطر من خارج

النافذة ، ويضمه فى كل قلب فتزيد مخاوفه خوفا على خوف ٠

وفى خارج النافذة ، وعلى آماد ٠ البعد يقف الريفيون يحدقون فى السيارات المنطلقة على الطريق السريع ، وفي وجوه الريفيين غبرة ولبسة رعب ودهشة عميقة ٠ هذا الطريق يقسم العالم الى ما قبله وما بعده ٠ ما قبله القرية ، وما بعده المقبرة ٠ أى نقص يعتور العالم بهذه القسمة الشائهة ؟ كيف تسد سكة الموتى الى منازلهم في المقبرة ؟ كيف تقطع السكة بشرعة الرعب والموت ؟

فاذا بالناس خارجين من قرية على شمال الطريق ٠ جمهور حافل ، جلاليب وتقايا وعزم لا يقهن ، وبيرق الجمع الحاشد نعش مسجي عليه رجل من الريف ٠ هل أطال الرجل قبل أن يموت وقوفه على جانب الطريق الزراعي يتأمل انطلاق السيارات الخارق وقلبه مبتلىء بالخوف ؟ الآن مات وركب نعشه وكان راية للخروج ليقف فى شرعة الرعب والموت ٠

بدأ الزحام ، جلابيب وأكمام ترتفع ملوحة ثم يزداد الزحام كثافة ، والعربات تراوغهم وتنفلت من خلال الفرج بين صفوفهم ، والزحام يلح ويشتد حتى تحول الى سد بشرى على السكة المرصوفة ، فكان ان وقفت السيارات على ضفتى الطريق ٠

الآن هدأت حافلتنا ، وظلت تركز سرعتها حتى

انتهت الى الوقوف في صــف الســيارات تئن دواليبها بلا معنى ، وترتجف أجسادها ، وقلق السائقين ، وقلق الركاب ، بينا حشد أصــحاب الجنــازة يفرض ارادته الرهيبة ، والنعش عائم على بحر من الملامح الســمراء في وجــوه متعبــة مغممة ، دقائق بلا نهــاية ، ثم بدأ الركاب في حاملتنا يشملهم حالة من الحبــور الرائع ، يضحكون من كل قلب ، ويزعقون من كل حلق ، ياسلام على الريفيين ! اذا مات منهــم واحــد يحتفلون به بكل امكانات الاحتفال ، قرآن ، وأحمال الطعام على الصواني تحمل للمعزين • وفى ذلك يمشى جمهور النعش بأقدام بطيئة على السكة المرصوفة ، والعربات السائرة تنتهى الى وقوف فى نهاية الصف على اليمين وعلى الشمال •

بذلك التأم عالم القرية بعالم المقبرة لدقائق خوالد فيها انتصر الموت على الموت ، وعبدت سكة المــوتى الى مقرهم الأخير • انصرم بعد ذلك موكب الجنازة • ثم بدأت الســيارة تمشى بطيئــا أولا ، ثم تأخــذ منتهى سرعتها ، وفى القلوب بقايا من حديث الموت ، وعــلى الوجوه سحابات وجوم وصمت •

● طارق بيابي :

أنا أحوج ما أكـون لتأمل ذاتي ، وقـد غادرتني زوجتي ومعها ولدي . قالت انها تقصد أن تزور أمها ، وتركتني لوحدتي وعللي .. جلست مكتئبا عـلى ديوان الردهة صامتا ، منتكسا ، شاردا ، حتى كبس على حلول المساء دونما نور في وجه ظلامه حتى أرى أخيلة عـلى صفاء العتامة ، تتلعب شخوص الخيـال وتحاورني ، وتنقض على عمق سكوني .

فاذا بي أسمع نقرا على باب مسكني ، أقوم وأظلع وأنا ألهث ، تخبطني أشباح الكراسي السـوداء ، أدمع من فرط مذلتي بضعفي ، فتحت طاقة في الباب فاذا بي أرى وجه أبي في المـربع الذي يصـل وحـدتي بقدوم والدي . فرحت . تدفقت من قلبي أنهار الدموع دافئة

تسيل على جروح عمرها مائة عام . قلت لأبي عبر طاقة الباب :

ـ مرحبا يا أبي ، آجئت تزورني يا أبي .. ! نعم. أوحشتني كثيرا ، منذ مت ، وأنا كنت يومها في سجن الاسكندرية ، وحين علمت بموتك كتمت دموعي حتى خلوت لنفسي بالليل ، آه من حزني على فراقك يا أبي .! أصبحت أحدثك في الرؤى ، أبثك آساى وأشكو لك من احتيال الأيام على قهرى ، الحلم والحقيقة في النهار ، بينهما أمشي منكسرا في دروب دنياى ، أهلا بك يا أبي أنت جئت تزورني .. !

قال أبي يتفزز من العافية في جسمه وحوله على القول ويلوح بيديه حتى دب الخوف في أوصالى :

ـ اني قد أرقني في قبرى انك يابني تركت سيرة الصالحين ، وليس في رمضان في بيتك قرآن يرتله حافظ ، وليس على مائدتك يشاركك الطعام فقير أو مسكين .. !

بهرني قول أبي فصمت :

ـ يا أبي انني لا أعرف حافظا آرتبه في بيتي ، والسخن اختلطت ، المحتال يرطن رطانة المحتاج ، وأنا أخاف .. !

استرسل أبي :

ـ النـــاس خير ، وفيهم حافظـــون كثيرون ، والذى احتال عليك بفقره فخذه بحيلته واكرمه ، والذنب في حيلته لله ٠٠ انه هـــو يبدل خوفك أمانا ونعمة ٠٠ !

حوصرت بقـــــول أبى ولا حيلة لى فى النجـــاة ، قلت كاليائس :

ـ ان دارى صغيرة توشك أن تضيق بنا نحن الأربعة، نتحرك بين الأشياء فى مسارب ضـــيقة ، تكاد تخنقنـــا يا أبى ٠٠ !

فأخذه من مقالتي الغضب ، يلوح بيديه ، فتنزاح الحيطان في الردهات والغرف ، وتتسع ، وأنا يقع فى قلبى زلزال الجدران تتحرك من أماكنها ، ويهدر أبى:

ـ وسعت الدار ، الرجل وعياله وفضيلته وكرمه ، وسيرته الصالحة ، فان ضاقت عليه بما فى نفســـه من ضيق ، اسلم تسلم تبرأ من علتك ٠٠ !

قلت لأبى :

ـ آه يا أبى ، اننى أحتـــاج لتضمنى الى صـــدرك ، خذنى لحنانك الذى اشتقت له كثيرا ٠٠ !

مددت يدى من طاقة الباب مشرع العينين لوجه أبى، وجه أبى مزق مسودة من الجلد ، تسلخت عن العظام ، حفرتا عينيه مليئتان بالدم الجاف ، ومنخاريه ، وصف

أسنانه عارية من الشفتين تصطكان بالكلمات •• هـو الموت • التفت للوراء ، أستند على الكرسي ، سقط تحت ثقلي، فتهاويت الى مالا نهاية • ثم افقت على وجه زوجتي التي رجعت في آخر المساء ، مرعوبة تهتف بي :

ـ ماذا بك •• ماذا بك •

وابنتي وابني واقفان وجهاهما خامدان • والجاران اللذان ساعدا في نقلي من حيث وقعت على أرض الردهة الى فراشي ، الكل يحدقون في ، همست فيهم :

ـ لا شيء •• لا شيء •• لا شيء •

• الجنازة :

مر بى جمهور الحزانى يحملون نعشه ، يمشـون مثقلين لا يبين خفق نعـالهم في أرض الشـارع ، وأنا جالس فى شرفة دوار أبى · لا · لا أمشي مع المشيعين مصطنعا الأسى حتى المقابر · لا · وان رمقنى الرجال بالنظرات الغضبى ، على قعودى عن الواجب والنكوص متشبثا بعنادى ، أواجه عيون الناس العاتبة لا أطرف أبدا ·

جلست فى مكان أبى على الأريكة متفززا ، يحرك الغضب أعضـائى والقلب ، أصـيح ولا أحـد يسـمع صياحى · من زعيقى تتزلزل الدور وتميل النخـلات ولا يسمع حس · قمت برغبتى ، بخيالى وأنا لا زلت جالسا ، مشيت لا ألوى على ترددى وأنا القعيد ، مشيت حتى أدركته ، والناس أطلوا ، ثم لبثـوا جامدين ، ثم

أمالوا الخشبة حتى واجهتني ، وأنا علوت واستطالت إعضائي حتى فقته طولا ، وكان وجهه في احتيازى ، هتكت الكفن عن ملامحه ، كان صفاء الموت مرسوما على بلاقع الجدب هنا • دخت • لكنني تماسكت ، تمشيت في الباحة التي خلت بتراجع الناس ، ألوح وأخطب في سكون الجثمان المسجى :

ـ كنت تقرأ دلائل الخيرات في صف الدراويش ، وأبي يطل عليكم بالحنان ، وكان يخصك بأكثره •• !

وكان رده هادئا لا تتحرك به شفتاه ، لكنه به يصطنع صمت الناس والبرود في قلبي :

ـ وأنا كرهت أباك بحنانه • يتخذ صورة الأب وليس هو ، كنت أعيذ به هوان أبي ، اقتداره على فقرنا • لكنه كان أباك فقط ، ونعمت به يا أخي ••!

قلت له :

ـ لا • ان الله ضربك بالشلل في وجهك ، انحرف وشاه ، بالسكر في دمك ، وارتفاع ضغطه يزحم عروقك •• !

قال :

ـ نعم • نعم • اني ميت ، وأنا ذاهب الى الله من فوري ، ولي عنده عظيم العتاب ، كيف حاصرني بالموت

من كل ســبيل ،كيف ابتسرنى عن الحيـــاة وأنا ملىء بالشوق لا يفتر ٠٠ !!

قلت له :

ـ جلس ولداك الطبيبــان بجــوارك لا يفتح الله عليهما ببلسم لعلتك ٠٠ !

قال :

ـ أحبهما ،رجلان من صلبى ، تعلما حتى وفقا ، وبما حملته رحم أم الهنا وملأت الدار على ٠ حرت ٠ كيف ضاق علمهما بعلتى ؟

قلت له :

ـ بما أنك انتزعت أم الهنا من زوجها ٠٠ ؟

قال :

ـ امرأتى حلالى ، من ساعة ما شفتها ، امرأتى لو كان عقدها معقود على ألف رجل ، هى حلالى يا أخى ٠ !

قلت له :

ـ انك قفزت عليهــا فى ظــلام غرفتهــا من طاقة السقف ٠٠ ؟

قال لى :

ـ هى لقطتنى اذ نزلت عليهــا من طاقة السقف ،

تداوى جروح جلدى وجراح قلبى بريقها ، ثم حملتنى الى الطاقة خروجا • أمشى • أمشى بين النـاس بوجع حبها •• !

قلت له :

ــ حتى مات الرجل ؟

قال لى :

ــ قطعه الله عن ظلم امرأته ، وهأنذا يقطعنى الله عن هنـائى ، عن امـرأتى وولدى ، ودارى الحـافلة بالخيرات !

ان لى مع الله عتابا !

قلت له :

ــ قطعك سبحانه عن أكل الحـرام ، تبيع بأربعين ما قد شريته باثنى عشر •

قال لى :

ــ بعت للمحتاج ، اشترى غير مقسور ولا مرغم !

قلت له :

ــ انك غششت الحكومة واستغللت حاجة الناس •

قال لى :

ــ شـطارتى اذا جلبت واذا بعت ، شـــطارتى ، والحيلة هى من التجارة فى القلب •• !

قلت له :

ـ ضبطك مفتشو السلطة بالبيع الردىء ، فحملت ذنبك ملء زكيبة حتى مركز الشرطة ٠٠ !

قال لى :

ـ كسرنى هذا والله يا أخى ما برئت منه أبدا ٠٠! نعمتى من نفع الناس ، ونعمتهم فى ايذائى ٠٠ ! أنظر تعرف الفرق !

قلت له :

ـ ابناك الطبيبان سمنا على الحرام ، لا يفقهما فى فنهما تعليم ٠٠ !

قال لى :

ـ لا ٠ لا ٠ انما الخطأ فى مكان لا يطـوله ظنى ، مت وما علمت ؟ ٠٠ !

قلت له :

ـ تأخذ فرشـة الصـلاة معك الى مركز الشرطة ، ومصحف القرآن ، تحيى الليل فى الحجز قائما بالعبادة ؟

قال لى :

ـ انما الفرشة وقاء جنبى من البرد والوسـاخة ، وأما كلمات القرآن آتدبرها كما تدبرتها عمرى ، ولى فيها مع الله عتاب ٠٠ !!

قلت له :

ــ ما أكرمك كنت فقيرا أيها العزيز :

قال لى :

ــ كانت لى مواجع، يدوسها الناس بالترفع والعطاء، وللثروة مواجعها ، مصونة فى البيوت العالية ، فى الغرف مسدلة أستارها ٠٠ !

قلت له :

ــ ان الله قدر أقدارا ، رفع وحط ٠٠ !

قال لى :

ــ كبرياؤك ، ودفء اعزاز أبيك لك ، وأنا تركت لمناصر المناخ ، وكرهت أباك ، وأنا رائح عليه بلومى له ، استر وجهى ، ولا تعوق مسيرتى لقبرى ٠٠ !

سحبت قماش الكفن على الميت ، والناس ينظرون لى ٠ عدلوا النعش والتأموا حوله ، ومشوا به ، صحبوه، وأنا تركت لوحدى ٠ عدت من الرحلة الخيالية الى مكانى على الأريكة فى شرفة دوار أبى ، بردان غارق فى العرق ذاهل أعد الخطوات حتى وصلوا المقبرة. سجوه فى قبره ، لقنوه حجته ثم سأل المحافظ الناس :

ــ ما تشهدون ؟

قلت هامسا مع جمهور المشيعين :

ــ انه كان صالحا ٠

القاهرة فى ٢٨/١/١٩٨٩ ٠

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٢٧٦ / ٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01.- 7589 - 7



♦ ♦ ♦ ♦

بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٠
قرش